مَرَاتِبُ اليَقِينِ

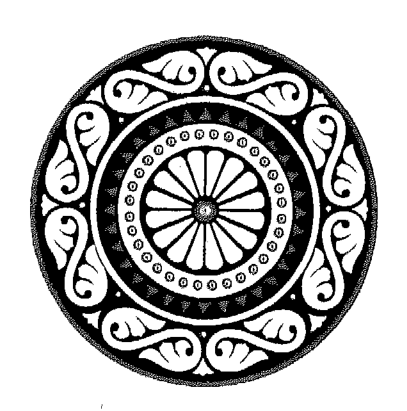
فِي رَسَائِلِ النُّورِ

تأليف

عبد الله سرور

تقديم

الأستاذ الدكتور سامي عفيفي حجازي





اهداءات ٢٠٠٢
شركة سوزلر للنشر
القاهرة

مَرَاتِبُ اليَقِين

في رسائل النور

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع
٩٨/١١٣٧٠

مراتب اليقين

في رسائل النور

تأليف
عبد الله سرور

تقديم
الأستاذ الدكتور سامي عفيفي حجازي



١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق
مدينة نصر - القاهرة - هاتف : ٢٦٣٦٦٨٤



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى هدانا إلى اليقين وهيئ لنا عقيدة تسمو بنا إلى مراقى الفلاح والسلوك المستقيم .

أحمده ولا حمد إلا دون نعمائه ، وأمجده بأكرم صفاته وأشرف أسمائه، وأصلى على رسوله الداعى إلى الدين القويم ، التالى للقرآن العظيم ، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الأنصار منهم والمهاجرين، وسلم عليه وعليهم أجمعين والمقتدين بهم إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذا بيان للناس عن مراتب اليقين كما ورد فى كليات رسائل النور للإمام الحجة بديع الزمان سعيد النورسى ، وقد أعده معده على تجلية ضوابط اليقين وأنه ثمرة الصراط المستقيم .

القائم على العلم ، فاليقين يمثل مركز دائرة الحياة بالنسبة للإنسان المكلف ولذا كان من رحمة الخالق بالمخلوق أن بث براهين اليقين فى الكتاب المقروء والكتاب المنظور حتى تكون ميسورة لكل نفس تنظر نظرة تفكر وتدبر وإعتبار بعد تحقيق الإيمان با لله واليوم الآخر ، وهكذا كان اليقين كما قال المحققون :

اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وفيه تفاضَلَ العارِفون وتنافَسَ المتنافِسون ، وإليه شَمَّرَ العاملون ، وَعَمَلُ القومِ إنَّما كان عليه ، وإشارتهم كلُّها إليه .

وإذا تزوّج الصبُر باليقين وُلِدَ بينهما حُصُول الأمانةِ فى الدِّين قال الله تعالى : ﴿وجَعَلْنا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُون بأَمْرِنا لَماّ صَبَرُوا وكانوا بآياتنا يُوقِنون﴾[1] .

وخصّ الله تعالى أهل اليقين بإنتفاعهم بالآيات والبراهين فى الكتاب المقروء والكتاب المنظور فقال تعالى : ﴿آلم ذلك الكتابُ لا ريب فيهِ هُدىً للمتقينَ . الَّذين يُؤمِنُونَ بالغيب وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمّا رزقَناهُم ينفقُونَ . والَّذين يُؤمِنُونَ بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِل من قَبلِكَ وبالآخِرةِ هُم يُوقِنُونَ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿وفى الأرض آياتٌ للموُقنين﴾[3] .

كما خصّ الله تعالى : أهل اليقين بالهُدَى والفلاح من بين سائر الخلق أجمعين فقال : ﴿والَّذِينَ يُؤمنوُنَ بما أُنْزِلَ إلَيْكَ وما أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخِرَة هُمْ يوُقِنُون أُولئكَ على هُدىً من رَبِّهِم وأُولئكِ هُمُ المُفْلِحون﴾[4].

كما أخبر عن أهل النارِ بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين فقال : ﴿وإذا قِيلَ إنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌ والساعَةُ لا رَيْبَ فيها قُلْتُم ما نَدْرى ما السَّاعَةُ إن نَظُنُّ إلاَّ ظَنّاً وَمَا نحن بُمسْتَيقِنِين﴾[5] .

---

(١) سورة السجدة الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٤ .

(٣) سورة الذاريات الآية ٢٠ .

(٤) سورة البقرة الآيات ٤ ، ٥ .

(٥) سورة الجاثية الآية ٣٢ .

فاليقين رُوح أعمال القُلوب الَّتى هى أرْواح أعمــال الجـوارح ، وهـو حقيقة الصِدّيقيّة ، وقُطْبُ رحى هذا الشأْن الّذى عليه مدارُه ومصداق هـذا قول الرسول - ﷺ - "لا تُرْضِيَنَّ أَحَداً بسخط ا للهِ ، ولا تَحمَدَنَّ أحداً علـى فَضْلِ ا لله ، ولا تَذُمَّنَّ أحداً على ما لم يُؤتِـكَ ا للهُ ، فـإنَّ رزق ا لله لا يَسُوقُه حِرْصُ حَرِيص ، ولا يَرُدُّه عنك كَراهَيةُ كارِه ، وإنَّ ا لله بَعْدلِه وقِسطِه جعـل الرَّوْح والفَرَح فى الرِّضَا واليَقِين ، وجعل الهَمَّ والحزْنْ فى الشَكِّ والسّخط" .

ومن هذا القول الجـامع كـانت ثمـرة التوكـل اليقـين ونتيجتُـه ، ولـذا حَسُنَ اقْتِران الهُـدَى بـه قـال تعـالى : ﴿فَتَوكَّل على ا لله إنَّكَ على الحَقِ المُبِين﴾[1] . فالحق هو اليقين .

وقالت رُسلُ ا لله : "وما لَنا ألاَّ نَتَوكَّلَ على ا للهِ وقَدْ هَدَانا سُبُلَنَا"[2].

ومتى وَصَل اليقينُ إلى القلب امتـلأ نـوراً وإشـراقاً ، وانتفـى عنـه كـلُّ ريْـبٍ وشَكٍّ وغَـمٍّ وهَمٍّ ....

وامتلأ محبّةً للهِ وخَوْفاً منه ورضاً بـه ، وشُكراً لـه ، وتوكُّـلاً عليـه ، وإنابـةً إليـه ، فهـو أسـاس لتحقيـق التكـاليف الإيمانيـة الدافعة إلى التجمـل بالتكاليف العملية .

---

(١) سورة النمل الآية ٧٩ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ١٢ .

ولذا قال العلماء إن لليقين جانبين : أحدهما ذاتى والآخر موضوعى.

فاليقين الذاتي : هو اليقين الذى لا يستطيع صاحبه أن ينقله إلى غيره، والمثال منه شعور المرء بما فى نفسه .

واليقين الموضوعى : هو اليقين المستند إلى أسباب تفرض نفسها على جميع العقول المدركة ، والمثال منه اليقين العلمى والمنطقى .

وقال أئمة السلوك - إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاءُ عنده نعمة ، والرّخاء مصيبة .

كما قال أبو بكر الورّاق - رحمه الله - اليقين على ثلاثة أوْجُه :

يَقينُ خَبر ، ويقين دَلالَة ، ويقين مُشاهدة .

أما يقين الخبر : فسكُون القلب إلى خَبَرِ المُخْبِر ووُثوقُه به .

وأما يقين الدّلالة : فهو ما فوق ذلك ، وهو أن يُقيم له مع وثُوقِه بصدقه الأَدلَّةَ الدَّالَّة على ما أخبر به .

ومن هذا المنطلق قال بعضهم : رأيت الجنَّة والنار حقيقة ، قيل له : كيف ؟ قال : رأيت بعَيْنَىْ رسولِ الله - ﷺ - ورؤيتى لها بعينَيْه أوثق عندى من رؤيتى لهما بعينى ، فإنَّ بصرى قد يُخْطِئ بخلاف بصره - ﷺ - .

والفرق بين عِلْم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبر الصادِق والعَيان، وحَقُّ اليقين فوق هذا .

وقد مُثِّلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك أنَّ عنده عسلاً وأنت لا تَشُكُّ في صِدْقه ، ثمَّ أراك إيّاه فازددت يقيناً ، ثمّ ذُقْتَ منه ، **فالأوّل** : علم يقين؛ **والثاني** : عَيْنُ يقينٍ ، **والثالث** : حَقُّ يقين .

فعلمنا الآن بالجنّة والنّار عِلْمُ يقينٍ ، فإذا أُزْلِفَتِ الجنّة في الموقف وشاهدَها الخلائقُ ، وبُرِّزت الجَحيم وعاينها الخلائق فذلك عَيْنُ اليقين ، فإذا دخل أَهلُ الجنّةِ الجنَّةَ وأهلُ النّار النّار فذلك هو حق اليقين[1] .

ولذا يرفض الإمام بديع الزمان الإيمان التقليدى الذى لا يثبت أمام الشبهات والأوهام وإنما كرس كل الأدلة والبراهين لإيقاظ الإيمان التحقيقى بمراتبه المتعددة ......

وقد أجاد الأستاذ "عبد الله سيد أحمد سرور" فى بيان ماهية اليقين ومراتبه كما بينها ضوابط اللغة والقواميس والمراجع الاصطلاحية وكما هى فى مؤلفات كليات رسائل النور للنورسى مشفوعة بالبراهين والدلائل الإيمانية فى الكتاب المنظور والكتاب المقروء كما تناولها علماء الكلام وأئمة السلوك والمفسرون ليس هذا فحسب بل وعرض الإمام بديع الزمان لوجهات نظر الفلاسفة ...... حتى بلغ من بيانه الشمولى أن ناقش

---

(١) راجع بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز أباذى الجزء الأول صـ ٣٩٥ وما بعدها ط ١٩٧٠ م .

المشتغلين بالعلوم الفلسفية ووضعهم فى مكانهم الصحيح ثم تناول الدراسة رؤية الإمام بديع الزمان وأن اليقين عنده يمثل الإيمان التحقيقى لا الإيمان التقليدى[1] .

وكتاب المؤلف ضم بين دفتيه قضايا اليقين ، واستطاع الكاتب جزاه الله خيراً أن ينطلق باليقين ليرسى المعالم ويضع الطريق أمام الباحثين عن اليقين .

وإن كان لا يخفى أن الكاتب أثار عدداً من التساؤلات والاستفهامات وهى ليست إنكارية فى طبيعتها وإن كانت تقف بنا على طريق يحتاج إلى بيان !

مع ملاحظة أن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى كان واضحاً فيما كتب وقال وانطلق من الثوابت اليقينية التى لا تحتاج إلى تساؤل أو إستفهام؟

والقارئ لكليات رسائل النور يقف على أنها تحدد أقرب الطرق إلى الله تعالى كما يقول الإمام بديع الزمان فى مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان.

"للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة ، وسبل عديدة ، ومورد جميع الطرق الحقة ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم - كتاب الله المقروء - كما هو منشور فى كتاب الله المنظور "الكون وما فيه"[2] .

---

(١) راجع كليات رسائل النور للنورسى مجلد ، الكلمات ، والملاحق والشعاعات .

(٢) راجع المجموعة الكاملة لكليات رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسى ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحى .

ولذا يقول الإمام بديع الزمان - رحمه الله - تحت عنوان التفكر نور:

إن التفكر نور يذيب الغفلة الباردة الجامدة ، والدقة نار تحرق الأوهام المظلمة اليابسة ، لكن إذا تفكرت في نفسك فدقق وتمهّل وتغلغل ....

و إذا تفكرت في الآفاق فأجمل وأسرع ولا تغص ولا تخض إلا لحاجة إيضاح القاعدة ، ولا تحدد النظر كما هو مقتضى الاسم "الظاهر" الواسع[1].....

وهذه الرؤية توقفنا على تجلية الإمام بديع الزمان سعيد النورسي لإيقاظ منبهات الفطرة والدين في نفس كل إنسان يبحث عن طريق الإيمان التحقيقي الذي يضيء الطريق أمام الإنسان في كل زمان ومكان .،

رحم الله الإمام بديع الزمان سعيد النورسي رحمة واسعة وأسكنه في مساكن القرب منه . ،

جماد الأول ١٤١٩
أغسطس ١٩٩٨

دكتور / سامي عفيفي حجازي
أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر الشريف

---

(١) راجع كليات رسائل النور للنورسي : مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان صـ ١١ ، ١٧ ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي ط الأولى ١٩٩١ م .

مقدمة

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على النبى المصطفى ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم صل وسلم وبارك عليه في الأولين ، وصل وسلم وبارك عليه فى الآخرين ، وصل وسلم وبارك عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين .

وبعد

اليقين ثبات مع الوضوح ، وعلم انتفت عنه الشكوك والشبهات، وهو الإيمان بما يجب الاعتقاد به في الدين.وهو الاعتقاد الذى يطابق الواقع الذى لا يقبل شكاً ولا زوالاً.

وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم ، وهو سكون القلب تحت مجارى إقرار الحق كما يقول السادة الصوفية.

والقرآن يحدثنا عن اليقين ، وعلم اليقين ، وحق اليقين وعين اليقين ويربط القرآن بين اليقين ومشاهد الكون ، وبين اليقين والتدبر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض ، في الدلائل والآيات.

ويربط القرآن بين اليقين والواجبات والقرائن كذلك يربط بين اليقين والإيمان باليوم الآخر.

﴿ آلم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ [البقرة ١-٤] .

ويقول : **﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين. هدى وبشرى للمؤمنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾** [النمل - ٤].

ويقول : ﴿ هذا بصائر للناس . وهدى ورحمة لقـــوم يوقنـــون﴾

[الجاثية – ٢٠].

ويحدثنا القرآن عن أهل الشك والظن والريب في مقابلة أهل اليقـــين. فيقول جل شأنه ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ .

ترى في وسط هذا الفيض النوراني من المعاني العلوية لكلمة "يقين" أين يقع في وسط هذا كله ، معنى اليقين عند الإمام النورسي في "رسائل النور"؟.

وعلى أى معنى من المعاني أقام النورسي منهجه الاستدلالي في إثبـــات أصول العقيدة وفى إثبات وتثبيت قضايا الفكر الإسلامي ؟

وأين يقع موقع الإمام النورسي من علماء الأمة السابقين، وما هـــى سمات التجديد في المنهج الأصولي والكلامي ؟

ثم كيف واجه النورسي وهو بصدد إثبات وتثبيت أصـــول العقـــائد الإسلامية تلك الهمجية الشرسة على الإسلام في تركيا والعالم الإسلامي؟

وإذا كان من تحصيل الحاصل القول بأن الإمام النورسي عالم ســـنى شافعي رباني محمدى ، فما هو منهجه الاستدلالي ؟ ومدى التزامه بمفـــاهيم السابقين ومدى التزامه بمخاطبات القرآن وبراهينه ؟ بمعنى ما هو الضـــابط العقلي الذى يتحرك فيه وهو يخاطب العقل الوازع والعقل الواعي والعقـــل المدرك. والعقل الرشيد. والعقل المنكر المعاند ؟

تلك تساؤلات ، هي موضوع البحث. وهو بصدد دراســـة مراتـــب اليقين في "كليات رسائل النور" للإمام بديع الزمان سعيد النورسي.

وعلى الله قصد السبيل

عبد الله سيد أحمد سرور

المحامي

البَابُ الأَوَّل

النورسى شاهد عصره

بطاقة حياة:بين يدى بديع الزمان سعيد النورسى

الترجمة الذاتية لحياة الأستاذ الإمام سعيد النورسى تناولها أحد أجـــزاء كليات رسائل النور هو " السيرة الذاتية" وأشارت إليها فقرات كثيرة في باقى أجزاء كليات رسائل النور، وتناولتها العديد من الكتب والدراسات والرسائل الجامعية فى مختلف الجامعات فى أنحاء العالم .

والمقام الذى نحن إزاءه لا يمكن أن يكون تكراراً . كما لايمكـــن أن يكون مقام استفاضة في تفاصيل هذه الحياة المديدة التى تبدأ من ســنة ١٨٧٧ م حتى سنة ١٩٦٠ . ثلاثة وثمانون عاماً مباركة. كلها جهاد ومجاهدة مفعمـــة بأعاصير ورياح هوج ، قابلها بإصرار الصابر الواثـــق مـــن وعـــد ربـــه ﴿ ولينصرن الله من ينصره﴾ [الحج : ٤٠] .

وأقولها مطمئناً ، ما إن فرغت من قراءة رسائل النور حـــتى تمثـــل لى الرجل وكأن واحداً من أصحاب محمد ﷺ قد بعث في عصرنا من جديـــد. ربانياً – قرانياً – محمدياً – التحكم بالقرآن وتدثر به وتتلمذ عليه . واقـترب من الكمال البشرى المطلق النبوى، ودنا من أخلاق أصحاب رســول الله ﷺ فدخل في رحاب مدرسة النبوة. فصار حق اليقين عنده شوقاً ولـــذة. وراح ينهل من فيض أنوار القرآن الكريم ، ومن بحار علوم النبوة المحمدية، فأضاء ما حوله وهدى ، وعلم ، وهان في عينه كل صعب ، واستعذب كـــل الآلام. فأنى لقلمى الضعيف المتواضع أن يحيط بشىء من هذا البحر الزاخر .

لكن لا حيلة لى ، إلا أن أعرض في سطور شديدة الإيجاز لأحـــداث حياة الإمام سعيد النورسى. الفكرية ، والسياسة ، والعلمية ، عامة ، قصد أن أقترب من هذه الشخصية الموسوعية العميقة ، وذلك لإبراز معـــالم هـــذه الشخصية الإيمانية الصاعدة الصابرة المنتصرة والى درجـــات التطـــور الـــتى

حدثت في مراحل حياته العلمية والسياسية ، وأثر ذلك على فكره ومنهجه وطرق المعرفة لديه.

ولد الإمام سعيد النورسى عام ١٨٧٦م وانتقل إلى جوار ربه في شهر مارس عام ١٩٦٠م وما بين هذين التاريخين ، عُمر مديد ، بلغ ثلاثة وثمانون عاماً عاش خلالها ، ما بين صبيٍ في قرية (نورس) من قرى شرقى الأناضول. يتعلم خلاله، وفى مدارس قريته والقرى المجاورة ، القرآن الكريم ، واللغة العربية " نحواً وصرفاً وبلاغة" .

وما بين داعية في بواكير شبابه لبني قومه يوقظهم ويحصنهم من السقوط وينبههم إلى التزام طريق الحق ، هذا إلى جانب دأبه على الدرس والتنقل حيث أساتذة الأناضول لتحصيل العلوم الشرعية والعلوم الحديثة، والدراسات المتنوعة الأخرى كالفلسفة والمنطق والكيمياء والفيزياء. والفلك.

وما بين محارب جريح وأسير حين قاد طلائع الشباب لرد العدوان الروسى على بلاده.

وما بين مشرد منفى ومعتقل سجين مطارد مضيق عليه تحاصره السلطات العلمانية المتنكرة للإسلام وحضارته ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ [البروج : ٨] .

وفى كل هذه المراحل وخلالها ، كانت المصائب لا تزيده إلا إيماناً وقوة وصموداً وصبراً ، وهو يكشف زيف اللادينيين ويواجه أعاصير الردة. وجحافل الزندقة ونداءات الانسلاخ من الإسلام وحضارته ، وكتابه ، ولغته، وكانت "رسائل النور" ، وما بين الميلاد والرحيل عاصر عهد الخلافة العثمانية في مرحلتها الأخيرة، مرحلة " رجل أوربا المريض " الذى تداعت عليه أيدى الأكلة المقتسمين بتداعى الذئاب راحوا يوزعون تركة الرجل . ولما يزل على قيد الحياة ، ما بين قادر على السلب والاقتسام ، وما بين آخذ ليسكت عن

القسمة ، وما بين متلمظ ينتظر نصيبه من الغنيمة ، كما عاصر العهد الجمهورى ، وإلغاء الخلافة الإسلامية والتنكر للإسلام وحضارته وكتابه ، ونبيه ﷺ وللغة العربية وحروفها ، ولتركيا المسلمة ورصيدها الحضارى الإسلامى وقيادتها للأمة الإسلامية.

وتنقل النورسى في أرجاء وطنه ما بين قريته (نورس) في ولاية (بتليس) شرقى الأناضول ، حيث الأقلية الكردية التي ينتمى إليها. وما بين مدينة (ماردين) و (وآن) و (استانبول) وغيرها من المدن التركية داعية ، معلماً ، ناصحاً أميناً ، ولقب بسعيد المشهور ، ثم بديع الزمان وكان قد أطلق على نفسه حسب مراحل سيره ، سعيد القديم ، وسعيد الجديد .

وفى سنة ١٩١١ قام بزيارة للشام ، وفى دمشق ألقى خطبته الشهيرة بالخطبة الشامية كما سميت بذلك.

• المحارب الجريح

أثناء الحرب العالمية الأولى شكلّ النورسى فرقة " الأنصار" من المتطوعين للحرب ضد روسيا القيصرية ، وجاهد وقاتل ثم أسر ، وقضى في الأسر عامين ونصف ، وحين تمكن من الهرب اتجه إلى ألمانيا عن طريق " فيينا ووارشو " وعاد إلى "أستانبول" عام ١٩١٨م ، والحرب العالمية الأولى على وشك الانتهاء.وفى هذا العام عين عضواً بدار الحكمة باعتباره واحداً من كبار العلماء.

وانتهت الحرب العظمى الأولى وهُزمت ألمانيا وحلفاؤها ومنهم تركيا، وانتصر الحلفاء ودخلوا استانبول عاصمة الخلافة وحاضرة الدولة العثمانية وكانت تلك طعنة قاتلة وضربة شديدة ونقطة فاصلة في حياة تركيا والنورسى بالضرورة باعتبار ذلك لطمة أوربية على وجه الأمة الإسلامية.

في الحقبة القصيرة وضع النورسى كتابه "الخطوات الست" وهو دعوة للجهاد ضد دسائس الانكليز .

ثم تداعت الأحداث وألغى مصطفى كمال الخلافة عام ١٩٢٤م وقبل ذلك بعام أعلنت الجمهورية التركية وألغى الدستور الإسلامى ، وأعلن دستور الجمهورية الجديد الذى يقوم على استبعاد الإسلام وبنائه الاجتماعى وقيام الدولة على العلمانية التى تنكر الدين وجعل ذلك مبدأه دستورياً، ودخل النورسى مرحلة جديدة من الجهاد.

فالفترة السابقة على إلغاء الخلافة ، كان النورسى فى دعوته يخاطب قوماً مسلمين دستورياً على الأقل فكان خطاب المنذر الناصح والمبصر ، خطاب الداعية لقومه بلسان عقيدتهم ، خطاب الحكمة والموعظة الحسنة، خطاب الوعد والوعيد والنذير والبشير ، خطاب المحذر من السقوط فى مهاوى الأفكار والفلسفات الزاحفة على ديار الإسلام.

لقد خاطب النورسى فيما بعد إلغاء دستور دولة الخلافة يستهدف إفهام بنى قومه سنن الله فى الكون حسبما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وشرح حقائق الحضارة الإسلامية وأصالة معدن الأمة الإسلامية ، لمواجهة النقص والإحساس به لدى البعض أمام الحضارة الأوربية الحديثة.

تحول خطاب الإمام بعد ذلك تحولاً جذرياً . فهو يحرص كل الحرص على تثبيت الإيمان فى قلوب مواطنيه ضد الزحف عليهم لاقتلاع هذا الإيمان، زحف مهول يسانده بإعلام الدولة وسلطانها وفى ذات الوقت يجابه بجسارة هذه الهمجية المادية الملحدة على الإسلام.

- **الدعوة إلى إصلاح التعليم**

وكان ذلك ضمن أسلوبه فى النهوض العلمى والاجتماعى والثقافى فى عهد ما قبل الجمهورية .

ولعلنا نذكر دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مصر وقولته الخالدة التي دوت في جميع بقاع العالم الإسلامى وتبنتها أقلام المصلحين أمثال الإمام النورسى في تركيا أمر التربية هو كل شئ وعليه يبنى كل شئ وأى إصلاح للشرق والشرقيين لابد وأن يستند إلى الدين ، والناس في التعليم طبقات ثلاثة ، العامة ، والساسة ، والعلماء ويجب تحديد ما يلزم لكل واحدة من هذه الطبقات الثلاثة من التعليم كماً ونوعاً [1] .

بينما ترددت هذه الدعوة في مصر ودوت في أرجاء العالم الإسلامى كله، كان النورسي يوجه دعوته القوية إلى السلطان عبد الحميد مطالباً إياه بإصلاح التعليم كله وضرورة إنشاء جامعة إسلامية حديثة في شرقى الأناضول تقوم على مناهج حديثة مهمتها نشر العلوم الإسلامية ودعوة المسلمين إلى التقدم والاهتمام بترقية المسلمين مادياً ومعنوياً [2] .

ولكن قيام الحرب العالمية الأولى ذهب بهذا المشروع إدراج الرياح ، ونجده يقول : " إن مقام الخلافة لا ينحصر في الإمامة في الصلاة ، فكما أن الخلافة تقوم على القدرة والقوة المعنوية ، فيجب أن تكون لها القدرة المادية التي تكفل مصالح الأمة المحمدية في أقطار الأرض جميعاً"[3].

وفى بداية عهد المشروطية ألقى النورسى خطاباً حامعاً في ميدان الحرية شرح فيه مفهوم الحرية في الإسلام باعتبارها الحرية التي يرسم الشرع حدودها. وليست هي الفوضى والعبث بلا ضابط . مؤكداً على ضرورة اقتباس العلوم التي تغذى التقدم دون أخذ الجوانب السلبية في الحياة

---

(١) الإمام محمد عبده : تجديد الفكر الإسلامى – د. محمد عمارة ، ص ٦٤

(٢) د. محسن عبد الحميد: النورسى متكلم العصر الحديث، ص ١٢.

(٣) المرجع السابق ص ١٤ وما بعدها.

الاجتماعية للغرب ، وأشار إلى أن هناك فئات تتحمل المسئولية عن تأخير الأمر هي: فئة العلماء ، وفئة المعلمين ، وفئة أصحاب " التكايا".

ثم كان دور السجن والاعتقال والنفى والمطاردة ، وهى المرحلة التى طالت في حياة النورسى ، ومن فضل الله أنها هى المرحلة التى أثمرت رسائل النور.

وفى عام ١٩٢٣ وقعت مشادة كلامية بين النورسى وبين مصطفى كمال في مدينة أنقرة.

ودع النورسى أنقرة في هدوء. ورحل إلى خرائب مهجورة في جبل أرك متأملاً معتكفاً ، وظل هناك فترة طويلة في عزلته المتأملة وعبادته بعد أن ذرف الدمع ساخناً وملتهباً على خرائب مدينته "وان "وشهدائها من تلاميذه وأصدقائه وأقاربه حيث دمر الروس والأرمن بيوت المسلمين في المدينة كلها، و لم تبق قطعة من الأرض إلا وأصابها الدمار.

وبينما هو في عزلته هذه ، قام " سعيد بيران" بثورته المسلحة ضد حكومة "أنقرة "تعبيراً عن السخط الشعبى والنقمة التى سرت في أوساط الشعب التركى ضد اتجاه الحكومة المعادى للدين ، ورفض النورسى الاشتراك في هذه الثورة وقاطع رجالها ونصح قادتها بالعدول عن ذلك قائلاً : نحن مسلمون ، والأتراك أخواننا فلا تجعلوا الأخ يقاتل أخاه ، فهذا لا يجوز شرعاً، إن السيف لا يشهر إلا في وجه الأعداء الخارجين ، ولا يستعمل في الداخل ، إن السبيل الوحيد أمامنا للخلاص في هذا الزمان هو القيام بإرشاد الناس إلى حقائق القرآن ، وحقائق الإيمان ، ومكافحة الجهل الذى هو أكبر أعدائنا ، لذا أرى أن تصرفوا النظر عن محاولتكم هذه لأنها محكوم عليها بالاخفاق. وسيهلك الآلاف من الرجال والنساء بسبب حفنة من القتلة والمجرمين) [١] .

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.

هذا هو منهج الإصلاح الجذرى ، رفض العنف على الرغم من أن الحكومة معادية للإسلام وتقتل وتسجن العلماء ، والتعليم هو السبيل إلى الخلاص .

وفعلاً تم القضاء على هذه الثورة ، ومع أن النورسى كان هذا موقفه؛ لولا أن السلطات اعتقلته ونقلته من وان إلى استانبول– إلى "بوردور " إلى " اسبارطة" إلى " بارلا".

وتوالت رسائل النور تنبه الغافلين وتوقظ المتطوعين إلى حقيقة ما هم فيه. في عام ١٩٣٤ صدر الأمر بعدم رفع الأذان باللغة العربية ، وفى عام ١٩٣٥ وضعت في يده القيود الحديدية وسيق إلى سجن " اسكى شهر" ثم نفى بعد ذلك إلى "قسطمونى" عام ١٩٣٦ ثم إلى " أمير طاغ" وظل فيه حتى عام ١٩٤٤ على الرغم من القضاء ببراءته مما لفق عليه من تهم ظالمة ، وفى عام ١٩٤٨م ، نقل إلى زنزانة إنفرادية ظل بها عشرين شهراً ، ثم أفرج عنه.

وفى المرحلة الأخيرة من حياته ، بقى مضيقاً عليه من السلطات وتقدمت سنه وبدأ يرسل خطابات إلى السياسيين والحكام ينصحهم بالرجوع إلى الشرع والاسترشاد بالإسلام في بناء الأمة ، ويعلم تلاميذه مناهج الإصلاح في هذه المرحلة موكداً على مبدأ التدريج والأخذ بالأولى ، والسير خطوة بعد خطوة لتنتهى الحلقات في النهاية إلى الخروج من هذا المأزق دون حاجة إلى استعمال القوة أو العنف .

وفى عام ١٩٥٣م ظهرت رسائل النور مكتوبة باللغة التركية وبحروف لاتينية ، وقدم النورسى إلى المحاكمة بتهمة مخالفة الدستور العلمانى وقضى ببراءة الرجل بعد رحلة كفاح شاقة .

وفى ٢٣ مارس عام ١٩٦٠ فاضت روح النورسى إلى بارئها راضية مرضية ودفن بفناء مسجد الرحمن بمدينة " أورفه" ، غير أن السلطات لم

تتركه يستريح في مرقده الأخير فأخرجوا جثمانه بعد ذلك ونقلوه بطائرة ليلاً إلى حيث دفن في مكان مجهول!!!.

• هدف رسائل النور

هدف رسائل النور ، هو تثبيت وحفظ حقائق الإيمان أو الإيمان الحقيقى أو اليقين ، أو الدليل الجازم الذى لا يجرح على ما ورد بالرسائل. تلك هى الغاية الأولى والأخيرة من رسائل النور ، حددها النورسى وأكد عليها في العديد من مواضع الرسائل.

• محاور فكر النورسي

يمثل فكر النورسى مدرسة تجديدية على الأصول، فالرجل عالم سنى شافعى أصولى متكلم، أمين على مذهبه، مجدد على الأصول لم يخرج على منهج العلماء من قبل . ويقوم فكره على محاور ثلاثة:

١- الموقف الوسط : أى الحق بين باطلين .

٢- الطريق الثالث: أى المعتدل بين تطرفين.

٣ – المواءمة بين الثوابت والمتغيرات

عصر النورسي:الحاجة إلى منهج جديد

عاش النورسي أربعة وثمانون عاماً ، عاش عمراً مديداً ما بين عام١٨٧٦ و ١٩٦٠م ، عمراً مليئاً بالأحداث الجسام ، ولد في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وتركيا يتكالب عليها الطامعون من كل جنس ولون ، فترة مليئة بألوان الطمع السياسي والحركات الجديدة ، والمسألة الشرقية قد تمخضت عن حصول التفاهم بين الدول الأوروبية على تقسيم تركة الرجل المريض ، وهو لا يزال على قيد الحياة. فبعد أن كانت المسألة الشرقية تهدف إلى تخليص الدول الأوربية من قبضة الدولة العثمانية ، تحول غرضها إلى تقسيم أقطار الدولة العثمانية مسيحية وإسلامية ، مع تبادل الأعضاء من كل نصيب متفق عليه في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها على قيد الحياة.

واصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعاً على الدولة العثمانية في هذه الفقرة فانهزمت جيوشها في ميادين لم تتعود فيها على غير النصر العاجل قبل هذه الفترة.

واستكثرت الدولة من الديون والقروض لسداد نفقات الحروب، وإشباع نهم السلاطين الذين أفسدتهم حياة الترف والضعف والاستبداد، وأفضى سوء السياسة المالية إلى إعلان الإفلاس والعجز عن أداء فوائد الديون في مواعيدها.

فى كتابه " الإسلام في القرن العشرين"، يتناول " عباس العقاد " هذه الحقبة في نهاية القرن التاسع عشر بالتحليل والوصف والاستنتاج فيقول :

" كان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنية في بلاد الغرب والشرق، فلم يكن من العسير على الدول الأوربية أن تجد المطاوعين لها في ثورتها على الحكم التركى، سواء من المسيحيين أو المسلمين الذين يطلبون

الاستقلال، أو ينقمون على الإدارة التركية وعلى كل حال فقد اصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعاً على الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت كل دولة ذات أثر في المسألة الشرقية قد انتزعت لها قطعة من بلاد تركيا وآسيا وأفريقيا"[1] .

فإذا نظرنا إلى الجانب التشريعي الذى أظهر علامات سيادة الدولة ، نجد أن علماء تاريخ التشريع يسجلون على هذه الفقرة في تركيا وولاياتها أن الدولة العثمانية قد بدأت تصدر المدونات الحديثة نقلاً عن القانون السويسرى في العقوبات وغيرها.

وتوالى بعد ذلك في غيرها من الدول التي كانت خاضعة للدولة العثمانية وسلطان الخلافة وانحسرت عن مجال التطبيق العملى أحكام الشريعة الإسلامية نتيجة خضوع هذه البلاد للاستعمار الأوربى وبصفة خاصة: الاستعمار الإنجليزى والفرنسى الذى عمل قبل أى شئ آخر على القضاء على تطبيق الشريعة الإسلامية وإحلال النظم القانونية الأوربية محلها. سواء كانت انجليزية أو فرنسية أو ايطالية وبذلك أصبحت الأحكام الشرعية الإسلامية المطبقة في حياة المسلمين اليومية هى أحكام الأحوال الشخصية الزواج ، الطلاق ، الميراث ، الوصية ، الوقف ... الخ وذلك في البلاد التي لم يتعرض من قبل فيها الوقف للإلغاء[2].

وفى الداخل تركيا في هذه الفترة ، تسلل إلى المسلمين في غفلة منهم فكر فاسد يقوم على العداء للإسلام ، عقيدة وشريعة ، وحضارة وقامت حركات ترفع شعارات خادعة للشباب وعناوين مخاتلة مراوغة ، وقد فعلت هذه الحركات فعلها في الجسد التركى في غيبة الحكم الإسلامى والإمام

---

(١) الإسلام في القرن العشرين : عباس محمود العقاد ص ١٤ وما بعدها.

(٢) تاريخ النظم القانونية في مصر: د. محمود سلام زناتى، ص ٤٥٠ وما بعدها.

المسلم بعد أن فعل يهود " الدونمة" في " سلانيك" فعلتهم في إسقاط الخليفة السلطان عبد الحميد ، بتنظيم وترتيب اشتركت فيه جمعية الاتحاد والترقى كمواجهة للجمعيات السرية اليهودية وغيرها[1].

تلك هى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وهذا هو المناخ السياسى والثقافى الذى ولد ونشأ في أحوائه الإمام سعيد النورسى بما يحوطه من سموم ومكائد وتآمر والهيار وسقوط عام في شتى النواحى.

وفى الجانب الآخر من الصورة وضع في غاية السخرية والاستهزاء بالدولة العثمانية من جانب الدول الأوربية ، ألا وهو الامتيازات الأجنبية والمحاكم القنصلية والقضاء المختلط ، وذلك بموجب معاهدات عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية وسرت كذلك في جميع أنحاء الولايات . وانتهى كل شئ إلى القسمة النهائية لأملاك تركيا وولاياتها. وحصلت كل دولة مقتسمة على اعتراف الدولة العثمانية بذلك.

وفى المقابل ، اشتعلت الحركات الوطنية ، حركات الشباب الأتراك التى تهدف إلى التحديث والنهضة والتخلص من طاقم القيادة الرجعى وإحلال جيل جديد من الكادر السياسى والعسكرى والإدارى.

وفى عام ١٩١٩ هزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى . وبدأت صفحة جديدة مغايرة تماماً عن التى سبقتها .

- **منهج النورسى في الإصلاح الدينى خلال فترة الخلافة:**

في هذه الحقبة ، كان المجتمع التركى هو قلب العالم الإسلامى ، ودار الخلافة الإسلامية التى يفترض فيها أن لها وظيفة محددة هى حفظ الدين وسياسة الدنيا بشرع الله.

لذلك ، واجه النورسى حالة الانهيار العام السابق الإشارة إليه بخطاب العالم المسلم إلى بنى قومه المسلمين أو المفترض فيهم ذلك ، لذا كان خطاب

---

(١) العقيدة وأثرها في بناء الجيل، د. عبد الله عزام ص ٩٢.

الدعوة من النورسى قائماً على المنهج الإسلامى فى محاولة إيجـــاد الحلـــول العقيدية والشرعية والتربوية ، كان يتسم خطاب النورسى خلال هذه الفـترة بالحكمة الإسلامية والرؤية والنصيحة بالموعظة الحسنة ، مع الحـــرص كـــل الحرص على كسب ود المخالفين له فى الرأى لأن منهج النورسى فى أساسياته يقوم على نبذ العنف وعدم فتح معارك مع المخالف له مهما كـــان ، كـــان يؤمن بوحدة الصف الداخلى وكان يردد دائماً أنه يجب توجيه المعـــارك إلى خارج الصف الإسلامى إذ لا توجد إلاّ خندقان : خندق الإيمان، وخنـــدق الكفر ، خاصة فى هذه الحقبة التى تداعى فيها الذئاب على جســـد الدولـــة العثمانية وحين تكالبت على المسلمين غزوات جامحة مدمرة زاحفة مدججـــة بأسلحة العلم وأسلحة الإعلام والمال والسلاح والجيوش ، لتدمر أمامها كـــل شئ .

من هنا كان منهج النورسى فى هذه الفترة حكيماً بصـــيراً ، منـــهج المعلمين المصلحين والعلماء الملهمين ، من أمثال السيد جمال الدين الأفغـــانى والإمام محمد عبده وعبد الحميد بن باديس وعبد الرحمن الكواكبى ، وغـيرهم من أئمة الإصلاح المعلمين.

• عهد الجمهورية ، ومنهج النورسى الجديد :

هزمت تركيا مع ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، ووقعت على معاهدة الاستسلام ، وقامت الجمهورية عام ١٩٢٣م ، وفى مارس ١٩٢٤ ألغيـــت الخلافة الإسلامية نهائياً ، وألغى الدستور ، وأعلن دستور الجمهورية الجديـــد على وفق معاهدتى "لوزان" و "فرساى" دستور يقوم على الانســـلاخ مـــن الإسلام كلية وعقيدة وشريعة وسلوكاً ، وهو ما تحقـــق مصـــادرة أمـــلاك الأوقاف وفصل تركيا عن التراث الحضارى الإسلامى نهائياً ، ومع منع قراءة القرآن الكريم باللغة العربية ، وإلغاء الحرف العربى فى اللغة التركية ، واستبدال الحرف اللاتينية ، والتنكر لكل موروث ثقافى وحضارى لتركيا مع ســـحق

المتدينين واعتقال وشنق العلماء. وتنفيذاً لبنود معاهدة " لوزان" التي فرضها الحلفاء على تركيا وضع التخطيط لمحق الإسلام نهائياً من تركيا ، وهو ما عبرت عنه دائرة المعارف التركية الرسمية ، حيث أعلنت صراحة أنه لا يوجد شئ اسمه الله أو الإله ووضعت المناهج المدرسية على هذا الأساس مع ما يصاحبه من الهجوم على الإسلام وكتابه ونبيه ﷺ وحضارته.

تلك هي مصيبة المصائب التي حلت بالإسلام والمسلمين في دينهم وكرامتهم وعقيدتهم وحضارتهم وقيمهم وسلوكهم.

لذا ، تغير خطاب النورسي ، فالأمر مختلف عما سبق ، فقد وجد الرجل نفسه ونفراً من تلاميذه وسط دوامات عميقة من الهجوم الكاسح، وانسلاخ عن الإسلام نهائياً باسم السلطات وفى حماية الدستور. ماذا يفعل؟ وما هو الخطاب المناسب . إنه هنا ليس في موقف المناقشة مع عقل مسلم اعتقد وصدق وآمن ليدرس الدليل بعد ذلك عقلاً أو نقلاً .

فهل يستعين بقضايا علم الكلام القديم ؟ هل يصلح لهذا الأمر مذاقات الصوفية وإلهاماتهم ؟ إنه في مواجهة منكرين لأهل العقيدة.

إذاً لم يكن ألاّ خطاب واحد. هو القرآن الكريم. الذى خاطب به رسول الله كفاراً في الجاهلية فأعجزهم . لقد وجد النورسى المنهج الأوحد في القرآن الكريم والسنة الشريفة فاستنبط منهجاً كونياً حضاريا شاملاً يتكلم بلغة العصر وبفهم عميق لتجارب المسلمين عبر عصورهم .

النورسى بين قادة الفكر في عصره

إذا كانت أوروبا قد حصرت خطتها حيال الشرق في سياسة واحدة. تريدها وتتعمدها ، فهناك سياسة أخرى لم تكن تريدها . تلقاها الشرق عنها، وإن وعود الإصلاح كانت ضربة لازبة ، ولم تخل بقعة من بقاع الشرق

رضيت بما هي فيه ، وصدق من قال في الغرب : "إن ماردا خرج من قمقمه الذى كان محاصراً فيه ، خرج غير معصوب العينين زمامه في أيـدى هـداة مصلحين معلمين ، وقادة مخلصين من رواد الثقافة وكان لهذه الهداية طـابع الشرق الخالد منذ الأزل ، طابع العقيدة والإيمان" وربما قال المجـددون قبـل الجامدين إن الأوربيين عملوا دون قصد بأدب الإسلام فأعدوا العدة ونظـروا إلى حكمة الله في خلقه ، فتقدموا وتأخر المسلمون ، وفى إشارة العقـاد إلى المصلحين المجددين المعلمين يقول: [1]

" إن النهضة الإسلامية في القرن التاسع عشر قد اتسعت لكل تجربـة من تجارب الإصلاح ، إصلاح بالعودة إلى القديم ، وإصـلاح بـالجديد ، وإصلاح بإحياء الحماسة الدينية ، وإصلاح بمحاربة الحضـارة العصريـة ، دعوات يقوم بها الثائرون ، وأخرى يقوم بها المتطهرون المسلمون ، وغير هذه وتلك ، دعوات قام بها المصلحون المعلمون المهذبون ، هذه الدعوات كـانت ألزم دعوات الإصلاح وأبقاها أثراً وأوفقها لكل زمان ومكان. وأبعدها مـن أن تضيع عبثاً كيفما كانت أحوال الأمم التى تنجم فيها وتنمو بين ظهرانيـها وقد ظهرت في أهم البيئات التى ينبغى أن تظهر فيها وفى الزمان الذى ينبغـى أن تظهر فيه"[2].

وعلى ضوء ذلك ، وكان الإسلام عاماً وشاملاً ، ينفذ بقوانينـه إلى شتى مناحى الحياة ، فإن المصلحين هؤلاء تخصصوا في شتى اتجاهات الحيـاة. لكن جمعهم في النهاية طريق الإسلام المستقيم طريق الذين أنعم الله عليـهم من عشاق الفضيلة ورواد الحقيقة، وطالبى الإصلاح ، وما أهداه من طرق.

---

(١) الأستاذ عباس العقاد: الإمام محمد عبده ، ص ٩ وما بعدها.

(٢) الأستاذ العقاد : الإسلام في القرن العشرين ، ص ٩٤.

ونظرة عامة على الساحة الإسلامية من شاطئ المحيط الأطلسي إلى الهند ووسط أفريقيا وإيران وتركيا وغيرها ، نجد أنه لم تخل بقعة من بقاع الإسلام من مصلح حديد معلم في هذه الفترة التي ظهر فيها الإمام النورسي غير أن الأمام بديع الزمان كان يواجه أوضاعاً متردية غير تلك الأوضاع التي كان يعمل فيها باقى إخوانه من المصلحين الهداة.

كان النورسى داعية الإسلام في تركيا ، والثائر والمجدد كما كان الأفغاني قبله بقليل ومعه الأستاذ الإمام محمد عبده اللذين ملأ الأرض بتعاليمهما الثائرة، وأوصلا منهجهما في الإصلاح والتجديد واليقظة إلى كل بقاع العالم الإسلامي.

ففى الغرب ، عبد الحميد ابن باديس ، ومحمد البشير الإبراهيمى، وفى الشرق عبد العزيز جاويش في مصر وآخرون وعت حركات التجديد صرخاتهم المدوية في إيقاظ الرقود والهاب النفوس.

وفى مجال الدعوة إلى مجد الإسلام ، والتمسك بعروته الوثقى، وتدبيج الكتب والرسائل وإقامة الندوات لإذكاء الهمم وإيقاظ العواطف الإسلامية كان محمد إقبال في الهند ومحمد عاكف وعبد الرشيد إبراهيم وشكيب أرسلان وعبد الوهاب عزام. وكان في الغرب اللورد هدلى ، داعية الإسلام في أوربا.

وفى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبذل الجهود المضنية في العمل بالشريعة الإسلامية مهما قامت الحوائل وتكاثفت الصعاب. كان محمود أبو العيون وأحمد غلوش ومحمد الخضر حسين.

وفى مجال عرض التاريخ الإسلامي، واحياء أمجاد اللغة العربية وآدابها ونشر الثقافة العربية وبعث التراث كان أحمد حسن الزيات وأحمد تيمور وسيد بن على المرصفى .

وفي تركيا كان سعيد النورسي يقوم وحده بكل هذا وخلفه عدد من تلاميذه، ووسيلته إلى الناس " رسائل النور" ، وكان النورسي أشبه بفيلسوف الإسلام في الهند محمد إقبال صاحب "نظرية الذاتية" مع اختلاف الظروف السياسة بعض الشيء بينهما ، لكن كلا الرجلين كان يواجه حضارات وثقافات متشابهة.

ومن عجب أن يطالع الباحث المسلم كتابا للدكتور أحمد أمين عن زعماء الإصلاح في العصر الحديث تناول فيه عدداً من المصلحين المحدثين في الأقطار الإسلامية المختلفة، لكن لم يشر بشيء إلى الإمام سعيد النورسي في تركيا .

ولعل ذلك قد لفت نظر الأستاذ أنور الجندى في كتابه " العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى" وهو بحق مؤلف يعتز به كل مسلم في أيامنا هذه ، ويعتبر خطوة متقدمة جداً على طريق الدعوة إلى الله ورسوله في أسلوب معاصر نظراً لما يحتويه من تفصيل عظيم، وتوضيح كبير لدور المسلمين الذى ظل مجهولاً في الحركة التحررية الحديثة ، تناول الكتاب المرحلة التي عاشها العالم الإسلامى حتى بدايات الحرب العالمية الثانية وهي الفترة التي اشتد فيها صراع استعمار الدول الأوربية مع المسلمين واستطاع خلالها أن يحرز بعض انتصاراته ، ويخضع كثيراً من دول العالم الإسلامى إلى سيطرته ، ويستغلها اقتصادياً وسياسياً ويتخذها مرتكزاً وفقاً لاستراتيجيته العسكرية لتأمين وجوده الحضارى وإمداده بالثروات الطبيعية والبشرية وغيرها.

ولقلة الكُتاب الذين تعرضوا للعالم الإسلامى ، فإن الأستاذ أنور الجندى جاء بكتابه هذا ليسد نقصاً كبيراً في محيط الدراسات الإسلامية المعاصرة ، وليتلخص من عيوب كثيرة سادت الدراسات الإسلامية التي

اعتمدت على المصادر الغربية غير المحايدة. وتأثيرها بنظريات الباحثين الغربيين غير المنصفين ، يتحدث الأستاذ الجندى في مدخل كتابه عن صمود الإسلام ضد الغزوة الأوربية العاتية ، ويفصل عن صمود المسلمين لعوامل الإذابة والمحو والانصهار في بوتقة الحضارة الأوربية الحديثة. وفى حديثه عن تركيا ونصيبها من الهجمة وحظها من الصمود ، وفى الباب الأول والرابع والسادس حيث كشف كأول كاتب عربى عن حركة المقاومة الإسلامية في تركيا ، وقال إنها حركة طمست معالمها في داخل مصر والعالم العربى ، نتيجة لظروف شتى قد يكون مصدرها التوجه الأوربى ، وقد أفرد الأستاذ الجندى لهذه الحركة التركية فصولاً متعددة تشعر القارئ العربى بالدهشة وتفرض تساؤلاً على الفور:

لماذا لم نعرف شيئاً من قبل عن جهاد هؤلاء الأخوة في تركيا؟ لقد كنا نفهم في العالم العربى. ونعلم نتيجة لعملية التعتيم الإعلامى المغرض أن الأتراك بعد سقوط الخلافة وقيام الجمهورية العلمانية قد استسلموا لواقعهم وانسلخوا عن دينهم ، وسلموا قيادهم لهذا المصير ، وسكتوا . بيد أننا لم نكن ندرى حقاً أنهم قاوموا وتحركوا رغم شدة القهر والإرهاب وظلوا مخلصين لدينهم وقيمه العظيمة ، ويعطينا كتاب الأستاذ الجندى تحليلاً عظيماً وقيماً عن الحركة الإسلامية في تركيا تحديداً ، وخير ما يستشهد به قوله أن الأستاذ محمد حسنين هيكل عام ١٩٤٩ زار تركيا وقال: " لم أشهد قوة في الإيمان بالدين الإسلامى وفى بلد شرقى إسلامى كما شهدته في تركيا".

وهناك كاتب آخر هو الأستاذ " حلمى القاعود "في كتابه"حراس العقيدة" يقول في عام ١٩٧٩ شهدت المدن التركية حركات عارضة من أجل العودة إلى الإسلام والتخلص من العلمانية المادية المنكرة للإسلام مما اضطر السلطات إلى فرض الأحكام العرفية.

وبدأ القارئ العربي بعد ذلك يتعرف على الإمام سعيد النورسي ، عن طريق العديد من المقالات المتفرقة والكتب التي صدرت بين الفينة والأخرى بالإضافة إلى العديد من المؤتمرات التي عقدت حول الإمام سعيد النورسي وحضرها كثير من العرب .

ومن الكتب الهامة التي أصدرها العرب حول الأستاذ النورسي كتاب أ.د. محسن عبد الحميد : النورسي متكلم العصر الحديث[1]

وقد حاول الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه هذا أن يحدد موقع الإمام النورسي بين قادة الرأى والفكر والتجديد في عصره ، مقارناً ذلك بالإمام محمد عبده وجمال الدين الأفغاني والإمام السنوسي ومحمد إقبال وحسن البنا وعبد الحميد باديس. فقال : "إن الحديث الذى رواه الإمام أبو داود وغيره من علماء الحديث والذى يقول:" إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها أو أمر دينها" ، لا يدل على أن المجدد واحد في العصر الواحد لأن "من" يدل على الجمع كما يدل على المفرد ، إذا فمن الحكمة أن يأتي في عصر واحد أكثر من مجدد لا سيما في هذا العصر الذى سقط فيه المسلمون سقطة كبيرة وجابهتهم فوق ذلك حضارة جاهلية جاحدة كافرة شاملة ، استعمرت بلادهم وغيرت أحوالهم وسفهت مفاهيمهم وشككتهم في دينهم وهددت وجودهم بالفناء. فكان من رحمة الله تعالى بالمسلمين أن بعث مجددين كثيرين ، وفق الله تعالى كل واحد منهم لتجديد ناحية من نواحي حياة المسلمين في أمور دينهم ودنياهم ، ثم يقول: " فالأفغاني جاء بعد ليل طويل ليوقظ الهمم ويحارب الفساد وينعى على التأخر الذى أصاب المسلمين ، ويدعوهم إلى العودة إلى الكتاب والسنة ونبذ

---

(١) أستاذ التفسير والفكر الإسلامي بجامعة بغداد

التعصب المذهبى والابتعاد عن البدع والمفاهيم الخاطئة التى دخلت حياتهم ، ويثير فيهم الغيرة الإسلامية لمقاومة المستعمرين وأعداء الإسلام والأخذ بأسباب القوة والحضارة والوحدة ومحاربة الاستبداد واسترجاع الأمجاد".

ودعوة "السنوسية" قامت على إساس التمسك بالكتاب والسنة الصحيحة وفهم الإسلام على إساسهما بعيداً عن البدع والخرافات والتعصب الأعمى ، داعياً إلى تحريك العقل الاقتصادى لتجديد الفقه الذى لا يقف عند العصور الماضية بل يتعداه إلى معالجة مشاكل المسلمين في زمانه، وكان الأسلوب المفضل عنده هو عرض هذه الحقائق في كتب ورسائل تربوية من خلال العبادة وتهذيب الأرواح فمذهب السنوسية يجمع بين العلم والعمل .

والإمام محمد عبده. أقام منهجه التجديدى على أساس مطابقة القرآن الكريم على الوقائع والحياة ، وجعله هداية الجيل ، وترك المناهج القديمة وناقش من خلال ذلك مشكلات العصر في عقلانية إسلامية أصولية بمقابلة أوربا الجاحدة وقام بالرد على أعداء الإسلام فيما إفتروه من أباطيل وشبهات ودعا إلى إصلاح التعليم الأزهرى والمعاهد الدينية .

ومحمد إقبال انصبت دعوته على فهم العقيدة الإسلامية – عقيدة التوحيد – لأنها الإكسير الذى يجعل التراب ذهباً والسر الذى يتحلى فيه الدين والشرع والحكمة والقوة والسلطان والدواء الذى يميت الخوف والشك، ويحيى الأمل والعمل ، ويقهر كل عقبة . ويدعو إلى فهم الذات ، كى يستيقظ المسلمون ويسترجعوا عزتهم وكرامتهم، ودعا إلى التغيير الدائم في إطار ضوابط الشريعة، والى تحذير الفكر الإسلامى، وحارب إقبال التصوف الفلسفى والطرق الصوفية محاربة شديدة وأثبتت أن الرهبانية ظهرت في كل أمة لإبطال الشرع. ورفض إقبال المنطلقات المادية والقيمية للحضارة الغربية الحديثة، وقد أحدث إقبال تجديداً كبيراً في حياة المسلمين في الهند،

ووضعهم على الطريق الحق للإسلام وشرح لهم حقائقه وملأ قلوبهم بالإيمان والحماس لقضيتهم.

ويقول الدكتور محسن عبد الحميد عن الشيخ " حسن البنا" : إن دعوته كانت تجديدية حركية تتبنى مذهبية الإسلام الشاملة في الوجود بالإضافة إلى أنها قدمت نظاماً إسلامياً متكاملاً دمجت فيه بين العقيدة والعبادة والحكم والسياسة والاقتصاد والجهاد والتربية — انطلقت من أصول الإسلام المجمع عليها لتقدم الحلول المثيرة لمشاكل العصر[1].

أما الشيخ عبد الحميد باديس في الجزائر ، فقد انطلق من القرآن والسنة يفسر القرآن الكريم ليقدم بناءً كيانياً إسلامياً ثابت الأركان في الجزائر استرجاعاً لأصالتها العربية المسلمة وللقيام بثورتها المجاهدة من أجل استخلاص الحقوق وطرد المستعمر الفرنسي.

ويصل الدكتور محسن عبد الحميد إلى الإمام بديع الزمان سعيد النورسي فيقول: " أما ظروف النورسي ومجتمعه التركي فكانت ظروفاً قاسية فرضت فيها الزندقة والإلحاد بقوة الحديد والنار على المسلمين. وهو الحال الذي دفع النورسي إلى التركيز على اتجاه آخر والتوسع فيه وصرف حياته كلها في سبيل توضيحه وتفهيمه وهو تجديد علم الكلام تجديداً واضح المعالم قوي الأركان، بحيث أوجد علماً جديداً قرآنياً ربانياً ، استطاع من خلاله نقل علم التوحيد من مجرد نظريات لا يفهمها إلا الخاصة إلى علم يفهمه الخاصة والعامة، والى سلوك في الحياة ينقل به العقل وتثور العاطفة، ويتحول إلى ممارسة يومية تحدد خط السير المستقيم للإنسان المسلم ويحول بينه وبين الوقوع في الحرام " .

---

(١) د. محسن عبد الحميد المرجع السابق ص ١٠٤ ، ١٠٥ مع التصرف والتلخيص.

ومن كل ما تقدم نستطيع القول : أن النورسى بالنسبة إلى كوكبة الهداة المصلحين هو موضع الصدارة فقد حدد مرض مجتمعه المسلم ثم عالجه معالجة قرآنية خالصة. وحول عقيدة التوحيد بأسلوبه الخاص إلى حياة مفعمة بمعانى الإخلاص والاستقامة. وحصن شباب بلاده بقاعدة يقينية راسخة هزمت أمامها كل دعاوى الزيف والأفكار المادية والهدامة.

الباب الثاني

اليقين عند النورسى وطرق الوصول إليه

مُقَدِّمَة

النورسى ، عالم مسلم سنى شافعى المذهب أصولى متمكن ،. نظـر حوله يشخص داء مجتمعه فعرف الداء وراح يبحث له عن الدواء. فنظـر في مؤلفات علم الكلام كما قال فوجدها قد اختلطت بمقـولات الفلاسـفة ، بحيث أصبح هذا العلم لا يؤدى إلى يقين كامل ، ولا يصلح سلاحاً في هـذه المواجهة الحامية الوطيس.

ونظر إلى الفلسفة فلم يجد إلا الشكوك والريب ، ونظر إلى المنـهج الصوفى فوجده لا يلائم الحال والزمـان ، فليـس الإلهـام والمذاقـات إلا وجدانيات تخص صاحبها ، وهو يبحث عن دلائل قاطعة ظاهرة منضبطة ترد الحائر وتحفظ عليه إيمانه " وتلقم المعاند حجراً في فمه . " فلم يجد إلا القـرآن الكريم سلاحاً مباشراً في إنقاذ الإيمان وزرع اليقين ، ورأى أن طريق القـرآن هو الطريق الواضح ، والقادر على تحريك العقول الباحثة عن الحق وأنه أيسر الطرق انطباقاً على آيات الله في الأنفس والآفاق ، وقد حدد النورسى الطرق إلى المعرفة اليقينية فقال :

أولها: منهج الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك الاشراقى.

ثانيها: منهج علماء الكلام المبنى على الحدوث والإمكان في إثبات واجـب الوجود.

ومع أن هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم ، إلا أن المشتغلين بهما قد أفرغهما في صور شتى، لذا أصبحا منهجين طويلين، وذوى مشـاكل فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك.

ثالثها: مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والأوهام.

رابعها وأولاها : طريق القرآن الكريم ببلاغته المعجزة ، وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق فى الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق إلى الله، وأقربه إلى الله، وأشمله لبنى الإنسان" على حد تعبير النورسى [1].

ويناقش النورسى كل طريق من هذه الطرق ويفندها موضوعياً ويـرد على أصحابها كما سيأتى بعد ، ويصل إلى أن معرفة الله المستنبطة من القرآن الكريم بدلائل علم الكلام القديم ليست هى المعرفـة الكاملـة ولا تـورث الاطمئنان القلبى ، في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت قائمة علـى نهـج القرآن الكريم ، تصبح معرفة تامة، وتسكب الاطمئنان الكامل في القلوب" .

أما براهين النورسى، فهى موضوع الباب، وعلى هذا يضم هذا الباب خمسة فصول هى:

الفصل الأول : دلالة مصطلح اليقين: لدى علماء اللغة ، لدى المفسـرين ، لدى علماء الكلام ، لدى الغزالى ولدى الصوفية ، لدى الفلاسفة ، لـدى النورسى ، مقارنات.

الفصل الثانى: موقف النورسى من الإلهام كطريق للمعرفة عند الصوفية.

الفصل الثالث: علم الكلام ، تقويمه وتجديده ضرورة حتمية لدى النورسى.

الفصل الرابع : أساس موقف النورسى من الفلسفة– ضوابـط قبولهـا أو رفضها كطريق للمعرفة.

الفصل الخامس: براهين النورسى واستدلالاته على اليقين:

أ – التأمل والنظر في الكون وضوابطه كطريق لليقين.

ب – الاستدلال (القياس والاستقراء).

ج – الأسباب والمسببات ونظرية النورسى وموقفه بين النورسى والغزالى.

د – اليقين عند الغزالى ، ودلالته عند النورسى ، مقارنات.

هـ – الدلالات (دليل العناية ، دليل الإمكان ، دليل الاختراع ، دليـل التوحيد) . ختام الفصل .

---

(١) المثنوى العربى النورى: ص ٤٢٨

الفصل الأول

اليقين. ودلالة المصطلح. مقارنات

١ - عند اللغويين:

قال صاحب لسان العرب : كلمة اليقين تدل على معنى الثبات مع الوضوح ، واليقين هو العلم الذى انتفت عنه الشكوك والشبهات ويقال: أيقن الإنسان الأمر ، وأيقن به إذا علمه علماً لاشك فيه واستيقن الأمر وأيقنه: إذا علمه،والاتفاق عند الإطلاق: يراد به الإيمان بما يجب الإيمان به في الدين.

واليقين عند علماء التوحيد : هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الذى لا يقبل الشك ولا الزوال.

واليقين كما يقول الأصبهاني: فوق المعرفة والدراية، ولذا يقال: علم اليقين، ولايقال معرفة اليقين.

واليقين: سكون الفهم مع ثبات الحكم [١] .

وقد يطلق اليقين في لغة القرآن على الموت، لأنه واقع محتوم لا مفر منه ولا شك فيه يقول تعالى في سورة الحجر ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ ويقول في سورة المدثر ﴿ **وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين**﴾ .

وقد يطلق اليقين في المعنى الأخلاقي. ويقصد به فضيلة من أعظم الفضائل وأجلها، لأنها تعلم صاحبها استمرار الإيمان، وثبات الروح، وزكاة النفس . ولذا نرى ابن القيم يقول في تصوير اليقين:

---

(١) لسان العرب: لابن منظور، باب أيقن

(هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون. وعمل القوم إنما كان عليه وإشارتهم كلها إليه) [1].

يقول الدكتور أحمد الشرباصي:

(حق لابن القيم أن يقول ذلك، لأن اليقين هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير. ولأن اليقين يعطينا معنى الإحسان الذى يقول فيه رسول الله ﷺ (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [2].

وهذا اليقين الجازم الدائم الثبات يقضى كمال التصديق للرسول ﷺ فيما جاء به حتى يقول المؤمن الموقن كما قال عامر بن عبد قيس (لو كشف الغطاء ما ازددت إلا يقيناً).

ولقد جاء ذكر اليقين في القرآن في مواطن كثيرة، فجاء لفظ : اليقين ويقين ،ويقيناً، ويوقنون، وتوقنون، وموقنون، وموقنين، ومستيقنين، وليستيقن، واستيقنها، وليستيقن [3].

وجاءت " **يقين** " بدون الألف واللام مرة واحدة في سورة النمل، قال تعالى: **﴿ قال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾**.

وجاءت اليقين معرفة بالألف واللام ست مرات هى : **﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾** و **﴿ ان هذا هو حق اليقين ﴾** و**﴿ انه لحق اليقين﴾** و**﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى آتانا اليقين﴾** و **﴿ كلا لو**

---

(١) من أخلاق الإسلام: د. أحمد الشرباصى، منار الإسلام يونية ٧٣ ص ٤٥.

(٢) الحديث متفق عليه راجع اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقى ص ٧٥٤ باب (ى. ق .ن).

تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين﴾ وكلها بمعنى سكون الفهم مع ثبات الحكم والاعتقاد الذى لا يقبل الشك والزوال بحال من الأحوال.

٢ – عند المفسرين:

جاء في تفسير جزء " عم " للإمام محمد عبده ، وفى تفسيره لسورة التكاثر يقول رحمة الله في تفسيره " الجدير بأن يسمى علماً هو علم اليقين، أى العلم الذى هو من أفراد اليقين. واليقين: هو الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح، مقدماته بديهية أو منتهية إلى البديهيات بحيث يستحيل تغييره " . ثم يقول الأستاذ محمد عبده : (والنفس إذا ملكت هذا النوع من العلم ، هو ملك إرادتها وعماد التصرف لها في شئونها فلو تعلمون هذا العلم لرفعكم عن هذا التكاثر ودفعكم إلى السعى فيما تصلح به ظواهركم وتخلص به لله سرائركم. وتتخذ به في تأييد الحق هممكم، لأن الخوف من سوء العاقبة ينأى بالنفس عما يقضى عليها ويدفعها إلى طلب ما هو أحسن منها ثم قال:

ثم لترونها عين اليقين ويقول " أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه " وعلم اليقين والمشاهدة من أفراد اليقين، يسمى عين اليقين لأنه هو الذى تنتهى إليه جميع العلوم اليقينية، لأن العلم البرهانى إن لم ينته إلى علم عيانى لا يعد يقيناً . فالعيانى هو ذات اليقين وبقية العلوم تضاف إليها حتى استوفت شرائطها[1].

ويتناول الدكتور أحمد الشرباصى بالشرح والتحليل تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده السابق بيانه فيقول:

---

(١) تفسير جزء عم – كتاب الشعب، للإمام محمد عبده – تفسير سورة التكاثر.

" والأستاذ الإمام محمد عبده قد ربط بين اليقين العلمي واليقين الأخلاقي. حين قرر أن علم اليقين هو الذى يصلح النفس ويصونها من الانحراف لأنه هو الذى ينهى النفس عن التكاثر الباطل الزائل، وهو الذى يدفع إلى السعى فيما تصلح به الظواهر وتتطهر السرائر وقد ربط الأستاذ الإمام بين اليقين وظواهر الكون. وربط بين اليقين والفرائض، كذلك ربط بين اليقين والدار الآخرة " [1].

٣ – عند علماء الكلام:

يقول علماء التوحيد: القرآن يحدثنا عن اليقين وحق اليقين وعلم اليقين، وعين اليقين.

يقول الدكتور أحمد الشرباصى: في مقاله عن اليقين عند علماء الكلام[2] " إن اليقين هو الاعتقاد الجازم. وعلم اليقين هو ما ظهر من الحق، وهو الدين وأحكامه، وقبول ما غاب من الحق وهو الإيمان بالغيب، كأمور الآخرة، والوقوف على ما قام بالحق كمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته وأعماله).

وعين اليقين : هو معاينة الحق، وحق اليقين: هو تذوق الحق والفناء فيه، وهو مقصور على الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهذا ابن القيم يحاول أن يقرب هذا فيقول: الفرق بين علم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان. وحق اليقين فوق هذا. وقد مثلت المراتب الثلاث بمن أخبرك أن عند فلان عسلا، وأنت لا تشك في صدقه فهذا علم يقين. ثم أراك إياه فازددت يقيناً، فهذا عين اليقين. ثم ذقت منه فهذا حق اليقين".

---

(١) د. أحمد الشرباصى، المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢) " اليقين" من أخلاق الإسلام : مجلة منبر الإسلام عدد يونية ١٩٧٣ ص ٥٠.

٤ - اليقين عند الصوفية :

يقول الصوفية : التصوف علم له حد، وموضوع وثمرة، أما حده: فهو التخلى عن كل خلق مذموم، والتحلى بكل خلق محمود.

وموضوعه: أفعال القلوب، والحواس من حيث التصفية والتذكية. وثمرته: إصلاح الفرد ظاهراً وباطناً ، ومرتبة الصفاء، هى اليقين عند الصوفى يوصل إليها صفاء القلب ومجاهدة النفس. وهذه الدرجة تتصل بالقوة اللانهائية المسيطرة على الأكوان اتصالاً يتيح لها من المعارف ما لا تصل إليه الحواس والعقول معاً . فوسيلة المعرفة عند الصوفية هى الحدس. فالعلم اليقينى إنما يجئ عن طريق الحدس أو الإلهام أو المكاشفة أو الوجدان[1]، واصطلاح اليقين عند الصوفية في فكر الإمام أبي حامد الغزالى لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز أو الشك بل إلى إستيلائه وغلبته على العقل حتى يقال فلان قوى اليقين أى لاشك لديه في إثبات الرزق مع أنه قد لايأتيه، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشئ وغلب ذلك على القلب، واستولى حتى صار هو المتحكم، والمتصرف في النفس سمى ذلك يقيناً[2]. لأنه أصبح بين حال ومقام ولما كانت الأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتى من عين الجود والمقامات ببذل المجهود ولذا ورد على لسان أئمة السلوك الصوفى .

إن الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج من باطنها إلا كل مليح .

٥ - اليقين عند الفلاسفة :

الآراء والنظريات في المعرفة الفلسفية كثيرة، فهناك المذهب "التجريبى": والمعرفة القاطعة لديه هى ما كانت عن طريق الملاحظة والتجربة فالخبرة الحسية هى طريق الوصول إلى المعرفة اليقينية وإذا أغلقت الحواس

---

(١) المعرفة في ظل الإسلام، العدد ١٤٦ مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الأستاذ عبد الحكيم المغربى ص ٣٠.

(٢) حجة الإسلام، الغزالى، أحياء علوم الدين، جـ١ ص ١٢٣.

أبوابها انعدمت المعرفة ولن تنشأ في العقل أفكار إلا إذا سبقتها مؤثرات حسية، وهذا المذهب تعرض للنقد الشديد".

وهناك المذهب العقلى (لديكارت) وطريق المعرفة في المذهب العقلى لا يرتكز على الحواس وحدها لأنها تخطئ وتصيب. لذا فلا تصلح أساساً للمعرفة. وانما أساس المعرفة هو العقل. فهو الذى يشك ويفهم ويدرك ويثبت ويريد ويشعر. والمذهب العقلى لا يرفض ما تجئ به الحواس لكن لا يقطع في الأخذ بها وهذا المذهب تعرض للنقد أيضاً.

وهناك المذهب النقدى، ويطلق الباحثون على رجال هذا المذهب (الموفقين) ويرى أصحاب هذا المذهب أنه لاتعارض بين المذهب التجريبى والمذهب العقلى، فالحقيقة إنما تتم بالعقل والتجربة معاً . وكلاهما متمم للآخر. وقد أسس (كانط) هذا المذهب فقرر أن المعرفة لا تتم إلا بالخبرة الحسية والمبادئ العقلية معاً فالمعرفة حسية وعقلية في آن واحد.

وهناك المذهب (البراجماتى) وهو مذهب فلسفى يقوم على استخلاص المعرفة التى ليست بمجرد العلم بالواقع كما هو. بل هى أداة السلوك العلمى الذى يأتى بالنفع.

وواضح أن كل فريق فلسفى يغالى في التشيع لمذهبه حتى أصبح لايرى الحقيقة إلا فيه ، فشاع الشك والريب والحيرة. وأصبح التساؤل: أين الحقيقة. ولا يزال الفلاسفة يبحثون عن الحقيقة[1].

اليقين عند الغزالى:

الإمام الغزالى يتكلم عن علماء الآخرة. فقال ، في وصف هؤلاء العلماء: أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين. فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله ﷺ " اليقين الإيمان كله " فلابد من تعلم علم اليقين وقال ﷺ

---

(١) البحث عن اليقين : " جون ديوى" ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى – سلسلة تراث الإنسانسة

" تعلموا اليقين " قال الإمام الغزالى معناه: جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين. وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم. وقليل من اليقين خير من كثير العمل".

تعريف اليقين عند الغزالى:

يقول: " واعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلق لمعنيين مختلفين. فعند المتكلمين يريدون به عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشئ له أربع مقامات "، ثم يفصل فيها.

ثم تعرض الإمام الغزالى إلى تعريف اليقين عند الصوفية وأكثر العلماء وانتهى إلى تقسيم اليقين إلى ثلاثة أقسام وبيان متعلقات اليقين وفى ماذا يطلب اليقين فيقول:

إن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه من أولهم إلى آخرهم هو من مجارى اليقين. فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقة بالمعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع في إحصائها، لكن نشير إلى بعضها وهى أمهاتها.

التوحيد:

وهو يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائل بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها. فالمصدق بهذا موقن فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنه والشكر لهم ونزول الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع فانه لا يشكر القلم واليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين. فقد صار موقناً بالمعنى الثانى وهو الأشرف وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته.

ومن ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك.

فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها. فاليقين هو الأصل والأساس وله مجارى أبواب أكثر مما عددناه ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. هو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع. فيحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها[1].

وعلى ذلك فلا يوصف بوصف المعرفة الحقيقية إلا ما كان بطريق البرهان الذى لاشك فيه، ولا يتصور الشك فيه، وكل علم لاشك فيه ولا يتصور الشك فيه يسمى يقيناً ، ولا يوصف هذا اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في الشك وحيث لا ظن ولا وهم ولاشك.

- **اليقين عند النورسى :**

يعنى اليقين عند النورسى " الإيمان التحقيقى " ويرفض الإمام النورسى "الإيمان التقليدى " الذى لا يثبت للشبهات والأوهام وأما الإيمان التحقيقى فهو أوسع مدى وأشمل وأمتن وله مراتب كثيرة جداً وأبرزها:

١ – **مرتبة علم اليقين** : وهى مرتبة تقاوم الشبهات المهاجمة بقوة ما فيها من براهين.

٢ – **مرتبة عين اليقين**: وتضم مراتب كثيرة جداً بل لها مظاهر بعدد الأسماء الإلهية حتى تجعل الكون يتلو آيات الله.

---

(١) إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالى جـ ١ ص ١٢٣ – ١٤٠.

٣ – مرتبة حق اليقين: وهى مرتبة لها مراتب كثيرة جداً وصاحب هذه المرتبة هو صاحب الإيمان الذى لا تنال منه جيوش الشبهات إذا هاجمته [١].

ويقول الإمام النورسى في (الملاحق):

لقد أوضح علماء علم الكلام العقلى والمبرهن لتلك المعرفة الإيمانيـــة ، وذلك فى ألوف من مجلدات مؤلفاتهم المستندة إلى العقل والمنطق .

أما أهل الحقيقة والتصوف فقد أوضحوا تلك المعرفة الإيمانية من جهة أخرى وبشكل آخر فى مئات من كتبهم المستندة إلى الكشف والذوق ، أمـا المنهج القرآنى المعجز ، ذلك المنهج الأقوم فقد أوضح الحقائق الإيمانية والمعرفة الإلهية إيضاحاً أرفع بكثير وأسمى بكثير وأقوى بكثير مما أوضحـــه أولئــك العلماء والأولياء ، فرسائل النور إنما تفسر هذا المنهج القرآنى الأقوم والجـامع الرفيع وبه تتصدى للتيارات الفاسدة المضلة المدمرة والواردة علـــى القـــرآن الكريم للإضرار – في سبيل عوالم العدم – بالإسلام وبالإنسانية منذ ألـــف سنة.

فلا ريب أن رسائل النور كانت بحاجة ماسة إلى حشد براهين لا حد لها أمام أولئك الأعداء غير المحدودين كى تتمكن من أن تكون وسيلة هـــذه البراهين المفاضة من القرآن الكريم للحفاظ على ايمان المؤمنين[٢].

إذاً.. اليقين عند النورسى هو الإيمان التحقيقى الذى هو أوسع مـــدى وأقوى بمراتبه الثلاث: علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

ويشرح الإمام النورسى دلالة اليقين بمعنى الإيمان التحقيقى ويفصـــل لذلك في الكلمات فيقول:

---

(١) الملاحق ص ٢٧٨

(٢) الملاحق ٢٧٨ – ٢٧٩

إن الإيمان لا ينحصر في تصديق إجمالى وتقليدى فقط، بل له انجلاء ومراتب كثيرة جداً كالمراتب الموجودة في البذرة النامية بالنسبة إلى الشجرة الباسقة أو كالمراتب الموجودة بين انعكاس الضوء من المرآة الصغيرة في اليد إلى انعكاسه من سطح البحر بل إلى انعكاسه من الشمس نفسها. فإن للإيمان حقائق غزيرة جداً . إذ ترتبط حقائقه الكثيرة بأنوار ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى ، ولسائر أركان الإيمان بحقائق الكون. حتى اتفق أهل الحقيقة على أن أجلّ العلوم قاطبة وقمة المعرفة وذروة الكمال الإنسانى إنما هو في الإيمان والمعرفة القدسية السامية والمفصلة والمبرهنة النابعة من الإيمان التحقيقى[1].

وعلى ذلك يكون اليقين بمراتبه الثلاث عند النورسى تحت عنوان الإيمان التحقيقى هو المعرفة السامية التى تنبعث من هذا الإيمان التحقيقى وبذلك يكون مفهوم اليقين لدى الإمام النورسى مفهوماً أوسع وأشمل من تعريف اليقين عند اللغويين.

ويكون مفهوم اليقين عند النورسى على النحو المشار إليه أعلاه بمراتبه الثلاث مطابق لهذا المفهوم عند الشيخ محمد عبده، إذ يتفق الاثنان معاً على هذه الدلالة.

ويكون هذا المفهوم لدى النورسى عن اليقين أعمق وأبعد مدى من دلالته عند المتكلمين.

ولا يتفق مطلقاً مع ما ذهب إليه الفلاسفة لاختلاف نقطة البدء فالنورسى عالم ،قرآنى ،ربانى. والقرآن هو وحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ أما الفلسفة فمنطلقاتها عقلية بشرية وهذه هى نقطة الخلاف.

---

(١) الملاحق ص ٢٧٨.

وقد أفصح النورسى عن ذلك صراحة في (الكلمات) حين قال: "المنهج القرآنى المعجز ذلك المنهج الأقوم قد أوضح الحقائق الإيمانية والمعرفة الإلهية المقدسة إيضاحاً أرفع بكثير وأسمى بكثير وأقوى بكثير مما أوضحه أولئك العلماء والأولياء " .

ويمكن من المقارنة بين دلالة مصطلح اليقين عند النورسى بدلالته عند الآخرين فيما يأتى:

١ – إن كان مفهوم اليقين عند النورسى لا يطابق المفهوم اللغوى تماماً إلا أنهما يتفقان في أن اليقين هو سكون الفهم مع ثبات الحكم.

٢ – لا تختلف دلالة المصطلح عند النورسى عنها عند الصوفية بل في طرق الوصول إلى اليقين ويبقى مفهوم اليقين عند النورسى أوسع مدى وأشمل مما هو عند الصوفية فالاختلاف في الدرجة والوسيلة.

٣ – تصعب المواءمة بين دلالة المصطلح عند النورسى بدلالته وطرقه عند الفلاسفة لاختلاف الأساس الذى ينطلق منه النورسى عن أساس منطلقات الفلسفة.

٤ – يتفق الإمام النورسى في تعريفه لدلالة المصطلح مع الإمام أبو حامد الغزالى في أن المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لاشك فيه، ولا يتصور الشك فيه. فإذا امتنع الشك وإن كان لاشك كان اليقين.

وهذا مايطابق معنى الإيمان التحقيقى عند النورسى أو اليقين بمعناه الواسع ودرجاته الثلاث.

الفصل الثاني

موقف النورسي من الإلهام كدليل لليقين

سبق البيان أن النورسي يرى أن إلهام الصوفية كطريق موصل إلى اليقين ناقص وقاصر، وذلك بمعناه عند النورسي وهو الإيمان التحقيقي بمراتبه لا لأن النورسي ينكر المنهج الصوفي أو ينكر وجود الإلهام ، لا. فقط إنه ينكر أن يكون الإلهام وحده دليلاً وطريقاً ظاهراً منضبطاً في إرساء الإيمان التحقيقي في هذا الجو المشحون بالفكر الخبيث والضال والمصوب على الإسلام من كل جانب حتى لا يقول من شاء ما شاء وحتى يغلق الباب على الأدعياء وكل من يخالف اليقين .

ولم يخرج النورسي في موقفه هذا عن طريق العلماء والأصوليين، فقد كان ولا يزال موضوع الإلهام مادة علمية تتناوله أقلام العلماء والباحثين بتعريفه وصوره، وموارد استدلال المستدلين به، وأقوال العلماء فيه، وما هي حجية الإلهام وما موقعه عند الأصوليين.

وقبل أن نعرض لرسائل النور تفصيلاً وموقفها من الإلهام كطريق للمعرفة اليقينية يقتضي البحث التعرض للإلهام عند العلماء السابقين وفي كتابات المعاصرين ليتم للبحث أساس المقارنة.

أولاً : ما هو الإلهام ؟

الإلهام لغة: أن يلقي الله في النفس أمراً يبعث على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده[1].

---

(١) لسان العرب: ابن منظور فصل اللام — حرف الميم

بينما يعرف الزبيدى: " بأنه ما يلقى في الروع بطريق الفيض" [1].

ويعرفه السبكى في جمع الجوامع [2]: " إيقاع الشيء في القلب يطمئن له الصدر ، يخص الله به بعض أصفيائه" .

الإلهام في الاصطلاح الشرعى: [3]

قال النسفى في كشف الأسرار: "الإلهام هو : الإلقاء في الروع عن علم يدعو إلى العمل به من غير استلال بآية ولا نظر في حجة".

وهناك تعريف لصاحب كشاف مصطلحات الفنون فيقول:

" هو إلقاء المعنى في القلب بطريق الفيض. أى بلا اكتساب فكر ولا استفاضة بل هو وارد غيبى من الغيب. وقد يزاد من الخبر ليخرج الوسوسة ولهذا فسره البعض بإلقاء الخبر في قلب الغير لاستفاضة فكرية منه " .

أما الزبيدى (في الاتحاف) فيقول:

" الإلهام هو من العلوم التى تحصل في القلب في بعض الأحوال لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل. بل بطريق الفيض، ويختص بما عند الله والملأ الأعلى. كما أن العلم الذى يحصل باستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً وفيه قياس ما غاب على ماظهر بدليل وعليه فالعلم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من الغير ولا يدرى الإنسان كيف حصل ذلك العلم، ومن أين حصل. وإنما كان بمشاهدة الملك الملقى في القلب كل ذلك يسمى إلهاماً وهذا ما يختص به الأولياء والأتقياء" [4] .

---

(١) تاج العروس: الزبيدى، ج١٧،ص ٦٧.

(٢) السبكى (جمع الجوامع) ج، ٢ ص ٣٩٨.

(٣) الإلهام : مقال بحلة الوعى الإسلامى – عدد يوليو ٩٥ ص ٥٠ للاستاذ الشيخ خليل الميس

(٤) الإلهام : للشيخ خليل الميس : الوعى الإسلامى فى عدد يولية ٩٥ ص٥١ وما بعدها .

ما حجية الإلهام واختلاف الفقهاء:

تناول العلماء هذه المسألة بالتفصيل سواء علماء الكلام أو الأصوليين وهل الإلهام حجة؟ وذكروا فيه اختلافات كثيرة فيما بينهم.

خلاصة ذلك أنه فيما عدا الصوفية الذين قالوا أن الإلهام حجة في الإحكام يجوز العمل به ، فالعلماء بين قائل بأن الإلهام ليس حجة وليس طريقاً للأحكام وبه قال أبو يعلى من كلام الإمام أحمد بن حنبل، وله مخالف من الحنابلة.

لكن ذهب الجمهور من العلماء إلى أن الإلهام لا يجوز العمل به إلا عند فقد الحجج وحتى القائلين بحجيته اختلفوا في درجة هذه الحجية هل هي حجية عامة أم قاصرة على الملهم.

١ – قال بن رجب الحنبلي فى جامع العلوم والحكم :

" إن ما ليس فيه نص من الله ورسوله، ولا عمن يقتدى بقوله من الصحابة وسلف الأمة فإذا وقع نفس المؤمن – المطمئن قلبه باليقين المنشرح صدره لشبهة موجودة و لم يجد من يفتي فيه بالرخصة ولا من يوثق به فهنا يرجع المؤمن إلى ما حاك في صدره وإن أفتاه هؤلاء المفتون "[1].

وقال أبو مظفر السمعاني: والذى عليه الجمهور أنه لا يجوز العمل بالالهام إلا عند فقد الحجج كلها في باب مباح[2].

ونحن لاننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه يزداد به نظره ويقوى به رأيه إنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لا يعرف أصله ولا نزعم أنه حجة

---

(١) أورده الشيخ خليل الميس – المرجع السابق ص ٥٢.

(٢) المرجع السابق ص ٥٢.

شرعية وإنما هو نور يخص الله به يشاء من عباده فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة[1].

الخلاصة ؛ أن مدعي الإلهام لا يحصر الأدلة في الإلهام حتى يكون استدلاله بغير الإلهام مناقضاً لقوله: نعم ، إن استدل على إثبات الإلهام بالإلهام كان ذلك مصادرة على المطلوب لأنه استدل على محل النزاع بمحل النزاع على فرض تقرير الاستدلال لثبوت الإلهام لنا أن نتساءل:

وما الدليل على أن قلبه من القلوب التي ليست بموسوسة ولا بمتساهلة؟

لذلك صدق ابن الهمام في المختار في قوله:

" إن الإلهام لاحجة عليه أى على الملهم ولا على غيره أى الخصم لعدم ما يوجب نسبيته أى الإلهام أو الملهم به إلى الله تعالى" [2].

الإلهام لدى علماء التوحيد:

يقول الإمام النسفي في أسباب العلوم في باب العقائد: "أن أسباب العلم وطرقه ثلاثة:

أحدها: الحواس السليمة: وهى حاسة السمع ، وحاسة البصر ، وحاسة الشم وحاسة الذوق ، وحاسة اللمس .

ثانيهما: الخبر الصادق.

ثالثهما: العقل".

لذلك ، قصر الإمام النسفي أسباب العلوم على الحواس السليمة، والخبر الصادق والعقل و لم يذكر الإلهام.

وقال الإمام النسفي: " ليس وراء هذه الأشياء سبب تعرف به صحة

---

(١) ابن حجر العسقلاني – فتح البارى جـ٢ ص ٣٥٣.

(٢) التقرير والتحضير جـ٣ ص ٢٩٥

وقال الإمام النسفى: " ليس وراء هذه الأشياء سبب تعرف به صحة الأديان وفسادها عند الأستاذ أبو منصور التميمى ، ما أورده الشيخ خليل الميس:

إن الأحكام الشرعية مأخوذة من أربعة أصول وهى الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، ولم يذكر الإلهام واحداً منها.

والخلاصة : انه لما كان للنفس والهوى والشيطان دخل في تزيين ذلك والتلبيس فيه رأى العلماء والفقهاء والأصوليين أن المصلحة للناس في عدم الأخذ بحجية الإلهام. فحجية الإلهام باب يجب سده على الناس لئلا يترتب على فتحه لهم من المفاسد ما لا يحصى.

وهذا ما أفتى به العلماء المتأخرون[1].

عند النورسى :

حدد الإمام النورسى مقدماً وسائل وطرق الوصول إلى اليقين أو الإيمان التحقيقى وحصر ذلك في طريق واحد بعد أن ناقش باقى الطرق فقال في " المثنوى العربى النورى " هناك طرق أربعة إلى معرفة الله ﷻ : منهج الصوفية المؤسس على السلوك الإشراقى. ومنهج المتكلمين، وهو لايوصل إلى اليقين الكامل، ومنهج الفلاسفة وهو مشوب بالشكوك والريب ومنهج القرآن الكريم وهو أقصر الطرق وأقربها في الوصول إلى الله وأشملها لبنى الإنسان كما سبق البيان في صدر هذا الباب.

ويؤكد الإمام النورسى ابتداء أنه ليس شيخ طريقة وأن مسلك رسائل النور ليس مسلك الطرق الصوفية " أن مسلك رسائل النور ليس مسلك

(١) الفتاوى الحديثية ٣٢٨ – ٣٢٩ أوردها عدد مجلة الوعى الإسلامى العدد ٣٥٧ ص ٥٨.

الطريقة الصوفية بل هو مسلك الحقيقة – مسلك مقتبس من نور مسلك الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين "[1].

ويقول " رسائل النور " فيها من علوم الإيمان التحقيقي مالا يشبه العلوم والمعارف الأخرى ، فهي نور وقوة ممدة لكثير من اللطائف الإنسانية فضلاً عن العقل[2].

ويقول: " إن مهمته الحقيقية هي نشر الأسرار القرآنية وليست صوفية ومسلكنا ليس طريقاً صوفياً " .

ويبرر ذلك بقوله " إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان وأن قصدي من رسائل النور إنما هو تأييد حقائق القرآن وإثبات أركان الإيمان ونشرها "[3].

ويفرق بين مسلك رسائل النور والطرق الصوفية فيقول: "كما أن أصحاب الطريقة الصوفية قد سلكوا في المعرفة الإلهية طريقتي أحدهما السير الأنفسي والآخر السير الآفاقي ووجدوا أن أيسر طريق وأكثرها اطمئناناً هي الطريق الأنفسي أي القلبي وذلك بالذكر الخفي القلبي، كذلك أن أهل الحقيقة قد سلكوا طريقين اثنين لنيل المعرفة والتصور بل بما هو أرقى وأجدر منهما بكثير وهو الإيمان والتصديق.

الأول : النظر إلى الآفاق بمطالعة كتاب الكون.

الثاني: الصعود إلى مرتبة الإيمان الخالية من الشكوك والعيوب بمطالعة خريطة الحقيقة الإنسانية وهي بدرجة حق اليقين"[4].

---

(١) المكتوبات ٣٩ – ٤٠٤.

(٢) انظر المكتوبات ٣٩-٤٠ .

(٣) انظر المكتوبات ١٩٠ .

(٤) الملاحق ٢٨٤

فاليقين النورسى هو مرتبة حق اليقين أعلى مراتب الإيمان التحقيقى - وطريق الوصول إليه ينحصر في مسلكين: النظر في الكون، والنظر في الكتاب المسطور ، كتاب الله تعالى. ومهما يصعد الإنسان إلى مرتبة الإيمان التحقيقى حيث لاشك ولا ريب مادام قد وصل إلى درجة حق اليقين.

ويدخل النورسى في التفرقة بين منهجه في الاستدلال، حيث يمتزج العقل والقلب معاً استناداً إلى البرهان القرآني، وبين الإلهام عند الصوفية الذى هو يقين يستند إلى الحدس فقط فيقول:

" لقد قضى أهل الكشف والتحقيق أن الإيمان التحقيقى كلما ارتقى من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة حق اليقين استعصى على السلب فلا يسلب ، فهذا النوع من الإيمان التحقيقى لا يتوقف على حدود العقل فحسب بل يسرى إلى القلب والى الروح والى اللطائف أخرى . أما الطريق الثانى فهو تصديق الحقائق الإيمانية بعلم اليقين البالغ درجة البداهة والضرورة، وبقوة تبلغ درجة (حق اليقين) وذلك بفيض سر من أسرار الوحى الإلهى من جهة الإيمان بالغيب وبطراز برهانى قرآنى يمتزج فيه العقل والقلب معاً ، فهذا الطريق الثانى هو أساس رسائل النور وخميرتها وحقيقتها "[٢].

ويحلل النورسى الفرق بين الالهام الصادق والوحى الإلهى في رسالة الآية الكبرى - مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه - فيقول : أن سائح الكون:

" نظر إلى حيث " **الإلهامات**" فرأى أن الإلهامات الصادقة مع أنها تتشابه ، من جهة ، مع الوحى، من حيث أنها نوع من المكالمة الربانية، إلا أن هناك فرقين :

---

(١) الملاحق ٢٨٤

(٢) الملاحق ١١٠ - ١١١

أولهما:

أن معظم الوحي الذى هو أسمى وأعلى من الالهام بكثير إنما يتم بوساطة الملائكة، بينما أغلب الالهام يتم دون وساطة. ولإيضاح ذلك نورد المثال الآتى:

من المعلوم أن هناك شكلين من صور التخاطب وإصدار الأوامر للسلطان:

الأول : باسم الدولة وعظمتها وحاكميتها وسيادتها على الجميع فيرسل أحد مبعوثيه إلى أحد ولاته، ويجتمع – أحياناً – معه، ومن ثم يبلغ الأمر ، وذلك اظهاراً لعظمة تلك الحاكمية وأهمية ذلك الأمر.

الثانى: باسمه الشخصى وليس باسم السلطنة، ولا بعنوان السلطان، فيتكلم كلاماً خاصاً، بهاتفه الخاص، في أمر خاص، وفى معاملة جزئية، مع خادمه الخاص مع أحد رعيته من العوام.

وكذلك كلام سلطان الأزل سبحانه وتعالى، فله كلام بالوحى والإلهام الشامل الذى يقوم بوظائف الوحى ، يتكلم باسم رب العالمين، وبعنوان خالق الكون . وله أيضاً طراز آخر من الكلام، وبشكل خاص ، ومن وراء حجب واستار، مع كل فرد ومع كل ذى حياة ، حسب قابلياتهم، وذلك لكونه ربهم وخالقهم.

الفرق الثانى

إن الوحى صاف، ودون ظل، خاص للخواص. أما الإلهام ففيه ظل واختلاط ألوان. وهو عام وله أشكال متنوعة ومتفاوتة جداً؛ كإلهامات الملائكة، وإلهامات الإنسان، والهامات الحيوانات. وهى بأنواعها المختلفة وأشكالها المتباينة جداً تبين مدى سعة وكثرة الكلمات الربانية التى تزيد على عدد قطرات البحار، ففهم السائح من هذا وجهاً من تفسير الآية الكريمة:

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ [الكهف: ١٠٩] .

ثم نظر إلى ماهية الإلهام يستنبط سره ويتعرف على حكمته وشهادته، فرأى أن ماهيته، وحكمته، ونتيجته تتركب من أربعة أنوار:

النور الأول :انه مثلما يتودد الله سبحانه إلى مخلوقاته عن طريق أفعاله فيهم الذى يُعرف (بالتودد الإلهى) فإن من مقتضيات الودودية والرحمانية (أى كونه ودوداً ورحماناً) أن يتحبب اليهم ويتودد قولاً وحضوراً وصحبةً أيضاً .

النور الثاني : انه مثلما يستجيب سبحانه دعاء عباده بأفعاله. فان من شأن الرحيمية إجابته لهم قولاً أيضاً من وراء الحجب.

النور الثالث: انه مثلما يمد سبحانه بالأفعال استمداد مخلوقاته المصابين بالبلايا العسيرة والنوائب الشديدة واستغاثتهم وتضرعهم فإن من لازم الربوبية أن يؤنسهم ويبدد وحشتهم فيمدهم بأقوال إلهامية هى في حكم نوع من كلامه.

النور الرابع: انه مثلما يشعر سبحانه فعلاً وجوده وحضوره وحمايته لأرباب الشعور من خلقه – الذين هم في عجز وضعف شديدين، وفى فقر واضطرار كبيرين، وفى أشد الحاجة والشوق لمعرفة مالكهم وحاميهم ومدبرهم وحفيظهم ، فانه من مقتضى رأفة الألوهية ورحمة الربانية، وضرورة لازمة لهما، أن يشعر كذلك حضوره ومعيته ووجوده، لمخلوق معين، بوجه خاص حسب قابليته، بوساطة قسم من الالهامات الصادقة، قولاً إلى هاتف قلبه، مما يعد في حكم نوع من المكالمة الربانية.

ثم نظر إلى شهادة الإلهام فرأى انه لو كانت للشمس حياة وشعور ، فرضاً ، وكانت الألوان السبعة التي في ضيائها ، فرضاً ، سبع صفات لها، لكان لها إذاً نمط من التكلم باشعتها وتجلياتها التي في ضيائها. ففى هذه الحالة: فإن وجود صورتها وانعكاسها في الأشياء الشفافة؛ أى تكلمها مع كل مرآة عاكسة، ومع كل شئ لماع ،ومع قطع الزجاج وحباب البحر وقطراته، حتى مع الذرات الشفافة حسب قابلية كل منها واستجابتها لحاجات كل منها

كل ذلك سيكون شاهد صدق على وجود الشمس، وعلى عدم ممانعة فعل عن فعل ولا مزاحمة كلام من كلامها لآخر .

فمثلما يشاهد هذا بوضوح، كذلك الأمر في مكالمة سلطان الأزل والأبد ذى الجلال، وخالق جميع الموجودات ذى الجمال، النور الأزلى، هى مكالمة كلية ومحيطة، كعلمه سبحانه وقدرته. لذا يدرك بداهة تجليها الواسع حسب قابلية كل شئ من دون أن يزاحم سؤال سؤالاً، ولا يمنع فعل فعلاً ، ولا يختلط بخطاب .

فعلم السائح بعلم يقيني أقرب ما يكون إلى عين اليقين، أن جميع تلك التجليات والمكالمات والإلهامات كل منها، وبمجموعها، تدل وتشهد بالاتفاق على وجوب ذلك المنور الأزلى سبحانه، وعلى حضوره سبحانه، وعلى وحدته، وعلى احديته[1]

وعن الإلهام أيضاً وهل هو وحده حجة أو طريق إلى اليقين يحاج به غير المسلمين؟ يقول النورسى:

" هذا وأن أخطر المهالك في هذا النوع من السلوك هو: أن المعانى الجزئية التى ترد على قلب السالك بشكل إلهام ، يتخيلها ، هذا السالك ، كلام الله، ويعبر عن كل الهام وارد بـ "آية" فيمتزج بهذا الوهم عدم احترام لتلك المرتبة السامية العليا للوحى.

نعم إن كل إلهام ابتداء من إلهام النحل والحيوانات إلى الهام عوام الناس والى الهام خواص البشرية، والى الهام عوام الملائكة، والى الهام المقربين الخواص منهم، إنما هو نوع من الكلمات الربانية، ولكن الكلام الربانى تجلى الخطاب

---

(١) الشعاعات ص ١٦٣ - ١٦٥

الربانى المتنوع المتلمع من خلال سبعين ألف حجاب حسب قابليات المظاهر والمقامات.

أما " الوحى" فهو الاسم الخاص لكلام الله جل وعلا، وابهر مثاله المشخص هو الذى أطلق على نجوم القرآن، وكل منجمة منه "آية" كما ورد توفيقاً . فتسمية هذه الأنواع من الإلهام بـ (الآيات) خطأ محض. إذ بمقدار النسبة بين صورة الشمس الصغيرة الخافتة المستترة المشاهدة في المرآة الملونة في أيدينا مع الشمس الحقيقية الموجودة في السماء، تكون النسبة بين الإلهام الموجودة في قلوب أولئك الإعياء وبين آيات شمس القرآن الكريم التى هى كلام إلهى مباشر" [1].

ومن كل ما سبق يتضح أن النورسى لم يهاجم الطرق الصوفية و لم ينكر على الأولياء ما يفيض به الله عليهم من الهامات وجدانية، وهو كرجل أصولى التزم ما استقر عليه أهل العلم والجمهور في عدم حجية الإلهام وحده على الكافة وأن الأحكام الشرعية والأدلة تنحصر في مصادرها المجمع عليها الكتاب والسنة والإجماع والقياس وأن الإلهام وإن كان غير متكرر فلا يجوز العمل به وحجيته قاصرة على أصحابه وعموماً فالمناخ الذى ظهر فيه النورسى كان بمجابهة وتحدياً.

النورسى والموقف من مسألة وحدة الوجود عند الصوفية :

بداية أبان الإمام النورسى منهجه من منهج الصوفية وبعد أن ناقش الالهام كطريق لليقين كما سبق واعتمد في إقامة الحجة على أصول العقيدة بالقرآن والسنة تناول بعد ذلك في أكثر من موضع بالشرح والتحليل عرض رؤيته في مسألة وحدة الوجود .

ولن ندخل في هذه القضية الشائكة في الفكر الصوفى بل نكتفى بالإشارة اليها خلال عرض النورسى لها. وهى قضية كلامية قديمة جديدة ونكتفى بعرض الإمام النورسى لها وبحرصه دائماً على توضيح منهجه

---

(١) المكتوبات ٥٧٨

الاستدلالى على حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين الذى هو أول مراتب الإيمان التحقيقى عنده. وحرصه على أن يؤكد أن هذا اليقين الواسع المتدرج المراتب من علم اليقين إلى عين اليقين ، إلى حق اليقين. حرصه على ضبط الاستدلال بضوابط شرعية محمدية ظاهرة منضبطة وهو يقيم الحجة ليقول إن الإلهام وحدة لا ضابط له . ويكمل الحديث في ذلك بالإشارة إلى مسألة وحدة الوجود.

ويعرف النورسى وحدة الوجود ويشرحها فيقول : "يعتبر الكثيرون" وحدة الوجود " من أرفع المقامات، بينما لانشاهد لها أثراً عند الذين هم الولاية الكبرى، وهم الصحابة الكرام وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون، ولا عند أئمة آل البيت وفى مقدمتهم الخمسة المعروفون بآل العباء، ولا عند المجتهدين وفى مقدمتهم الأئمة الأربعة، ولا عند التابعين، فهل الذين أتوا من بعد هؤلاء اكتشفوا طريقاً أسمى وأرفع من طريقهم؟ وهل سبقوهم في هذا المضمار؟!.

الجواب: كلا . وحاش لله أن يكون الأمر كذلك، فليس في مقدور أحد كائناً من كان أن يصل إلى مستوى أولئك الأصفياء الذين كانوا أقرب النجوم اللامعة إلى شمس الرسالة والوارثين السابقين إلى كنوز النبوة فضلاً عن أن يسبقوهم، فالصراط المستقيم إنما هو طريقهم والمنهج القويم إنما هو منهجهم.

أما وحدة الوجود فهى مشرب ونزعة وحال وهى مرتبة ناقصة، ولكن لكونها مشّربة بلذة وجدانية ونشوة روحية فإن معظم الذين يحملونها أو يدخلون إليها لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها، ظانين أنها هى المرتبة الأخيرة التى لا تسمو فوقها مرتبة ولا يطاولها أفق.

لذلك فان صاحب هذا المشرب ، إن كان ذا روح متجردة من المادة ومن وسائلها ومزقت ستار الأسباب وتحررت من قيودها ونالت شهوداً في لجة الاستغراق الكلى، فإن مثل هذا الشخص قد يصل إلى وحدة وجود حالى لاعلمي، ناشئة من وحدة شهود وليس من وحدة الوجود، فتحقق لصاحبها كمالاً ومقاماً خاصاً به، بل قد توصله إلى إنكار وجود الكون عند تركيز انتباهه في وجود الله.

أما إن كان صاحب هذا المشرب من الذين أغرقتهم المادة وأسبابها .. فإن ادعاءه لوحدة الوجود قد تؤدى به إلى إنكار وجود الله سبحانه لكون انتباهه منحصراً على وجود الكون.

نعم إن الصراط المستقيم هو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذين يرون أن " حقائق الأشياء ثابتة" وهى القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالى: **﴿ ليس كمثله شيء ﴾** [الشورى: ١١] أى انه منزه عن الشبيه والتحيز والتجزؤ وان علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات، فالموجودات ليست أوهاماً كما يدعى أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هى من آثار الله سبحانه وتعالى[1].

إذاً ليس صحيحاً قولهم (لا موجود إلا هو) وإنما الصحيح (لا موجود إلا منه) لأن الحادثات لا يمكن أن تكون القدم نفسه— أى أزلية.

إذن؛ فإن الصحابة والمجتهدين وآل البيت عندما يشيرون إلى أن حقائق الأشياء ثابتة يقرون بأن لجميع الأشياء وجوداً عرضياً أسبغه الله عليها بالخلق والإيجاد ومع أن هذا الوجود وجود عرضى وظل غير دائم بالنسبة لوجود

---

(١) المكتوبات ١٠٥-١٠٦.

واجب الوجود، إلا أنه ليس وهماً ولا خيالاً. فإن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ على الأشياء صفة الوجود بتجلى اسمه (الخلاق) وهو يديم هذا الوجود"[1] .

ويعود النورسى مرة ومرة بالشرح والتفصيل لفكرته عـــن وحـــدة الوجود فيقول في المكتوبات:

يعتبر "وحدة الوجود" التي تضم " وحدة الشهود" مـــن المشـــارب الصوفية المهمة وهى تعني: حصر النظرفى وجود " واجب الوجـــود"، أى أن الموجود الحق هو: " واجب الوجود" سبحانه،فحسب وان سائر الموجـــودات ظلال باهتة وزيف ووهم لا تستحق إطلاق "صفة الوجود عليـــها حيـــال" واجب الوجود" لذا فان أهل هذا المشرب يذهبون إلى اعتبـــار الموجـــودات خيالاً ووهماً ، ويتصورونها عدماً في مرتبة ترك ما سواه، أى : " تـــرك مـــا سوى الله تعالى" حتى انهم يتطرفون ويذهبون إلى حد اعتبار الموجودات مرايـا خيالية لتجليات الأسماء الحسنى.

إن أهم حقيقة يحتويها هذا المشرب هى : أن الموجودات الممكنـــة الممكنات والمخلوقات" تصغر وتتضاءل عند أصحابها من كبار الأولياء الذين وصلوا إلى مرتبة حق اليقين بقوة إيمانهم بحيث تنزل عندهم إلى درجة العـــدم والوهم ، أى انهم ينكرون وجود الكون بجانب وجود الله تعالى الذى هـــو واجب الوجود.

غير أن هناك محاذير ومخاطر عدة لهذا المشرب ، أولها وأهمها:

أن أركان الإيمان ستة، فهناك عدا ركن الإيمان بالله، أركان أخـــرى كالإيمان بالآخرة، فهذه الأركان تستدعى وجود الممكنـــات أى أن هـــذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالى.

---

(١) انظر نفسه

فعلى صاحب هذا المشرب ألاّ يصحب معه هذا المشرب، وألاّ يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة. ثم ان عليه الا يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لأن الدساتير العقلية والقوانين العلمية، وأصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة المطهرين لايمكنها أن تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لامكانية تطبيقية. لذا فلا يرى هذا المشرب في أهل الصحوة الإيمانية من الخلفاء الراشدين، والأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين من أجيال السلف الصالح من هذه الأمة، إذن فليس هذا المشرب في أعلى المراتب وأسماها، بل قد يكون ذا علو الا انه ناقص في علوه، وقد يكون ذا حلاوة مغرية ولكنه لاذع المذاق. ولظاهر حلاوته ولجمال ايحائه لايرغب الداخلون فيه في الخروج منه، ويتوهمون — باستشرافات نفوسهم — انه أعلى المراتب وأسماها.

ولكوننا قد تناولنا شيئاً من أسس هذا المشرب وماهيته في رسالة نقطة نور معرفة الله جل جلاله" وفي "الكلمات" و"المكتوبات" فاننا نكتفي بذلك، ونقصر الكلام هنا على بيان ورطة خطرة قد يقع فيها قسم من الحائمين حول " وحدة الوجود" وهي:

ان هذا المشرب يصلح لأخص الخواص عند حالات الاستغراق المطلق وللمتجردين من الأسباب المادية، ومن الذين قد قطعوا علائقهم بما سوى الله من الممكنات والأشياء.

ولكن اذا نزل هذا المشرب من علياء الأذواق والمواجيد، والأشواق القلبية إلى دائرة المذاهب الفكرية والعلمية وعرض بشكله العلمي والعقلاني على أنظار الذين استهوتهم الحياة الدنيا، وغرقوا في الفلسفات المادية والطبيعية، فانه سيكون إغراقاً في الطبيعة والمادة، وإبعادها عن حقيقة الإسلام.

فالشخص المادى المتعلق بالأسباب، والمغرم بالدنيا، يتشوق إلى إضفاء صفة الخلود على هذه الدنيا الفانية، لأنه يعز عليه أن يرى محبوبته وهي تتبختر بين يديه وتذوب، فيسبغ صفة البقاء والوجود الدائم على دنياه، انطلاقاً من فكرة " وحدة الوجود" فلا يتورع ، عندئذ ، من رفع محبوبته ، الدنيا ، إلى درجة المعبود بعد أن اسبغ عليها صفات الدوام والخلود والبقاء الأبدى، فينفتح المجال أمامه إلى إنكار الله سبحانه والعياذ بالله.[1]"

ومن كل ما سبق عرضه يتضح موقف النورسى من منهج التصوف في المعرفة فيما يأتي:

أولاً: النظرية الصوفية تقوم على أن المعرفة اليقينية طريقها الحدس والالهام الذى هو إدراك قلبي مباشر ووجدانى صرف فيوقن الملهم به إيقاناً لا سبيل إلى دفعه.

ثانيا : النورسى واحد من العلماء الأصوليين والمتكلمين المتمكنين يلتزم بما استقر عليه الجمهور من أن مصادر الشرع هى الكتاب والسنة والإجماع والقياس وليس الإلهام واحداً منها.

ثالثاً : النورسى كمتكلم وقف على ما استقر عليه علماء الكلام القدامى في أن أسباب العلم ثلاثة: الحواس السليمة ،والخبر الصادق ، والعقل . لذا لم يعد هؤلاء العلماء الإلهام واحداً منها وقد وقف النورسى عند هذا الحد .

رابعاً : النورسى لاينكر الالهام ولا ينكر التصوف. ولكنه يرفض التزاماً منه بما استقر عليه جمهور العلماء المتكلمين والأصوليين في عدم اعتبار الالهام وحده طريقاً لليقين العام وعدم اعتباره وحده دليلاً ظاهراً منضبطاً يمكن الوصول به إلى معرفة يقينية.

---

(١) المكتوبات ٥٨٠ - ٥٨١

الفصل الثالث

الموقف من الفلسفة

مما تتضمنه رسائل النور من حوارات ومناقشات قضايا الفلسفة ويبين منها أن الرجل كان على علم تام بالمدارس الفلسفية والنظريات سواء منها ما كان متعلقاً بالفلسفة اليونانية القديمة أو نظريات الفلسفة الحديثة حتى بلغ من تفوق النورسى فى العلوم الفلسفية أن حكم على كبار المشتغلين بها أمثال الفارابى وابن سينا لذلك كان حكمه على الفارابى وابن سيناء فى أنهما لم ينالوا إلا أدنى الدرجات من الإيمان بسبب أنهما إتخذا الفلسفة اليونانية شعاراً لهما"[1].

وإذ يرفض النورسى الفلسفة فانه يرفض منها تحريف الفعل من خلال مذاهبها فقد اختلفت المذاهب فى قضية المعرفة. هل المعرفة نسبية أم مطلقة؟ هل هى فطرية أم مكتسبة؟ فالمعرفة تارة نسبية وأخرى مطلقة وثالثة فطرية ورابعة مكتسبة ترتكن على التجارب. وكذلك الإختلافات العديدة حول تعيين القوة العارفة وتحديد مدى اختصاصها تارة هى الحواس وحدها، وأخرى هى الحواس مع العقل وثالثة هى البصيرة ورابعة هى العقل وحده كما يرى " ديكارت " فضلاً عن الإنقسام حول تقسيم المعارف الإنسانية. هل هى معارف عامية وعلمية؟ والمحيط واسع عموماً فالآراء والنظريات الفلسفية فى المعرفة على كثرتها كانت أمام بصر النورسى . ويلاحظ النورسى فى " الكلمات" و" الشعاعات" و" اللمعات" يركز القول على ثلاثة مذاهب فلسفية يخصها بالتقييد والرد والمعارضة وهى المذاهب التجريبية التى تقوم على اكتساب المعرفة بطريق الملاحظة والتجربة وعلى المذهب العقلى الذى يقول

---

(١) انظر الكلمات : ٦٤٥-٦٤٦-٦٤٨

بأن العقل وحده كاف في الوصول إلى المعارف وإدراك مفاهيمها ،وهنـــاك ثالثاً المذهب النفعي الذى يرى الجمع بين المذهب العقلى والمذهب التجريـبى على ما سنوضح بعد.

كان كل هذا الأمر أمام بصر النورسى حين قرر أنه يرفض المنـــاهج الفلسفية كطريق إلى اليقين. ويصور ذلك في " الكلمات".

فيقول:

وإن قلت فما تكون أنت حتى تنازل هؤلاء المشاهير؟ فهل أصبحـــت نظير ذبابة حتى تتدخل في طيران الصقور؟

وأنا أقول: لما كان لى أستاذ أزلى وهو القرآن العظيـــم، فـــلا أرانى مضطراً أن أبالى – ولو بقدر جناح ذبابة – في طريق الحقيقة والمعرفة، بأولئك الصقور الذين هم تلاميذ الفلسفة الملوثة بالضلالة والعقل المبتلى بالأوهـــام فمهما كنت أدنى منهم درجة إلا أن أستاذهم ادنى بدرجات لاحدّ لها مـــن أستاذى، ففضل أستاذى وهمته لم تستطع المادة التى أغرقتهم أن تبلل قدمـــى. نعم أن الجندى البسيط الحامل لأوامر سلطان عظيم وقوانينه، يمكنه أن ينجـز من الأعمال مالا ينجزه مشير لدى ملك صغير.[1]

أسس موقف النورسى من الفلسفة

يتضح من كلام النورسى في " المكتوبات" أنه يرفض الفلسفة كطريق إلى اليقين لسبب واحد، هو أنه مادامت الفلسفة تستقل عن الإسلام فـــهى مرفوضة، وأنه يقبلها في حالة واحدة. إذا رأى منها إنما استجارت بالإســـلام وانقادت إليه، وأصبحت في طاعته فحينئذ تتنفس الإنسانية بالسعادة وتعيـش

(١) الكلمات ٦٤٨

حياتها الاجتماعية الهائلة وهو موقف فكرى منطلق من منهجه القـــرآني في المعرفة.

- يقول في المكتوبات:

وهو يسجل تأملاته في قـــول الله تعـــالى **﴿ كـــل يـــوم هـــو في شأن ﴾** ويقول:" هذه المسألة لا يمكن إدراكها بالعقل ولا كشفها بالحكمـــة الفلسفية " ثم شرع في الشرح والتمثيل فيقول:

ما سر هذه الفعالية المحيرة للألباب الجارية في الكائنات وما حكمتـــها؟ ولم لا تستقر هذه الموجودات الدائبة في الحركة، بل تتجدد وتتغير؟

الجواب : إن إيضاح هذه الحكمة يحتاج إلى ألف صحيفـــة، فنـــدع الإيضاح جانباً ونحصر الجواب في غاية الاختصار في صفحتين اثنتين فنقول:

إن شخصاً ما إذا أدى وظيفة فطرية ، أو قام بمهمة اجتماعية، وسـعى في إنجازها سعياً حثيثاً، فلاشك أن المشاهد يدرك أنه لا يقوم بهذا العمـــل إلا بدافعين :

الأول: هو المصالح والثمرات والفوائد التي تترتب على تلك الوظيفة والمهمـــة وهي التي تسمى بـــ "العلة الغائية".

الثاني: ان هناك محبة، وشوقاً، ولذة يشعر بها الإنسان أثناء ادائه لتلك الوظيفة، مما يدفعه إلى القيام بها بحرارة وشوق، وهذا مـــا يســـمى بـــ " الداعـــى والمقتضى" .

مثال ذلك: أن الأكل وظيفه فطرية يشتاق الإنسان إلى القيام بها بدافع من لذة ناشئة من الشهية، ومن بعدها فهناك إنماء الجسم وإدامة الحياة كنتيجة للأكل وثمرة له. **﴿ ولله المثل الأعلى ﴾** فان الفعالية الجارية في هذا الكون الواســـع التي تحير الألباب وتجعل العقول في غمرة اندهاش وإعجاب إنما تســـتند إلى

قسمين من الأسماء، وتجرى نتيجة اظهار حكمتين اثنتين واسعتين بحيث ان كلا منها لا يحدها حدود.

الحكمة الأولى:

إن أسماء الله الحسنى لها تجليات لاتحد ولاتحصر، فتنوع المخلوقات إلى أنواع لاتحصر ناشئ من تنوع التجليات غير المحصورة. والأسماء بحد ذاتها لابد لها من الظهور أى تستدعى اظهار نقوشها، أى تقتضى مشاهدة تجليات جمالها في مرايا نقوشها واشهادها. بمعنى أن تلك الأسماء تقضى بتجدد كتاب الكون ، أى تجدد الموجودات آناً فآناً، باستمرار دون توقف، أى أن تلك الأسماء تقتضى كتابة الموجودات مجدداً وببلاغة حكيمة ومغزى دقيق بحيث يظهر كل مكتوب نفسه أمام نظر الخالق جل وعلا وأمام أنظار المطالعين من الموجودات المالكة للشعور ويدفعهم لقراءته.

السبب الثانى والحكمة الثانية

كما أن الفعالية الموجودة في المخلوقات قاطبة نابعة من لذة ومن شهية ومن شوق، بل أن في كل فعالية منها لذة، بل كل فعالية هى بحد ذاتها نوع من اللذة.

(ولله المثل الأعلى) فهناك شفقة مقدسة مطلقة ومحبة مقدسة مطلقة تليقان به سبحانه وتلائمان غناه المطلق وتعاليه وتقدسه وتوافقان كماله المطلق . ثم أن هناك شوقاً مقدساً مطلقاً يليق به آت من تلك الشفقة المقدسة والمحبة المقدسة، وهناك سرور مقدس ناشئ من ذلك الشوق المقدس وهناك لذة مقدسة لائقة به – إن جاز التعبير– ناشئة من ذلك السرور المقدس، ثم الرحمة المطلقة النابعة من تلك اللذة المقدسة، وما ينشأ من المخلوقات قاطبة من رضى عام وكمال شامل من انطلاق استعداداتها من القوة إلى الفعل وتكملها، ضمن فعالية القدرة.. فما ينشأ من كل هذا من رضى مقدس

مطلق – إن جاز التعبير – وافتخار مقدس مطلق.. كل ذلك بما يليق ويخص الرحمن الرحيم سبحانه يقتضى فعالية مطلقة وبصورة لاتحد.

وحيث أن الفلسفة والعلم تجهلان هذه الحكمة الدقيقة في الفعالية الجارية في الوجود، خلط أصحابها الطبيعة الصماء والمصادفة العشواء والأسباب الجامدة في غمرة هذه الفعالية البصيرة العليمة الحكيمة، فما اهتدوا إلى نور الحقيقة بل ضلوا ضلالاً بعيداً [1].

خطاب القرآن في الإشارة إلى الكائنات وخطاب الفلسفة:

وهى من النقاط الفكرية التى تصدى النورسى بها إلى محاورة العلمانيين الماديين والرد عليهم. ذلك أن أحد قد وجه اليه سؤالاً عن موضوع الكائنات في القرآن الكريم وأن القرآن الكريم حين يشير إلى الكائنات يشير إليها إجمالاً وأن الفلسفة تبحث ذلك تفصيلاً قال النورسى في المكتوبات [2]؟

أما إجمال القرآن الكريم بعض المسائل الكونية وابهامه في بعض آخر فهو لمعة اعجاز ساطع وليس كما توهمه أهل الالحاد من قصور ومدار نقد.

فإن قلت:

لأى شئ لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمة والفلسفة فيدع بعض المسائل مجملاً ويذكر أخرى ذكراً ينسجم مع شعور العوام وأفكارهم فلا يمسها بأذى ولا يرهقها بل يذكرها سلسا بسيطاً في الظاهر؟

نقول جواباً :

لأن الفلسفة عدلت عن طريق الحقيقة وضلت عنها، وقد فهمت حتماً من الدروس اوالكلمات السابقة أن القرآن الكريم إنما يبحث عن الكائنات استطراداً، للاستدلال على ذات الله وصفاته واسمائه الحسنى، أى يفهم معانى هذا الكتاب ، كتاب الكون العظيم كى يعرف خالقه.

---

(١) المكتوبات ١٠٩ - ١١٠

(٢) المكتوبات ٢٦٠

أى أن القرآن الكريم يستخدم الموجودات لخالقها لا لأنفسها. فضلاً عن أنه يخاطب الجمهور. أما علم الحكمة (الفلسفة) فينظر إلى الموجودات لنفسها، ويخاطب أهل العلم والفلسفة.

وعلى هذا، فما دام القرآن يستخدم الموجودات دليلاً وبرهاناً، فمن شرط الدليل أن يكون ظاهراً وأظهر من النتيجة أمام نظر الجمهور.

ثم إن القرآن مادام مرشداً فمن شأن بلاغة الإرشاد مماشاة نظر العوام، ومراعاة حس العامة ومؤانسة فكر الجمهور، لئلا يتوحش نظرهم بلا طائل ولا يتشوش فكرهم بلا فائدة، ولا يتشرد حسهم بلا مصلحة، فأبلغ الخطاب معهم والإرشاد أن يكون ظاهراً بسيطاً سهلاً لا يعجزهم ،وجيزاً لا يملهم مجملاً فيما لا يلزم تفصيله لهم ، ويضرب بالأمثال لتقريب ما دق من الأمور إلى فهمهم.

فلأن القرآن مرشد لكل طبقات البشر تستلزم بلاغة الارشاد أن لايذكر ما يوقع الأكثرية فى المغالطة والمكابرة مع البديهيات فى نظرهم الظاهرى، وأن لايغير بلا لزوم ماهو متعارف محسوس عندهم، وأن يهمل أو يجمل ما لايلزم لهم فى وظيفتهم الأصلية.

فمثلاً: يبحث عن الشمس لا للشمس، ولا عن ماهيتها، بل لمن نورها وجعلها سراجاً، وعن وظيفتها بصيرورتها محوراً لانتظام الصنعة ومركزاً لنظام الخلقة، وما الانتظام والنظام إلا مرايا معرفة الصانع الجليل. فيعرفنا القرآن بإراءة نظام النسج وانتظام المنسوجات كمالات فاطرها الحكيم وصانعها العليم، فيقول : ﴿ والشمس تجرى﴾ ويفهم بها وينبه إلى تصرفات القدرة الإلهية العظيمة فى اختلاف الليل والنهار وتناوب الصيف والشتاء. وفى لفت النظر اليها تنبيه السامع إلى عظمة قدرة الصانع وانفراده فى ربوبيته. فمهما

كانت حقيقة جريان الشمس وبأى صورة كانت لاتؤثر تلك الحقيقة فى مقصد القرآن فى إراءة الانتظام المشهود والمنسوج معاً.

ويتابع النورسى التفرقة بين منهج القرآن الكريم ومذهب الفلسفة في هذا الصدد فيقول : فالآن استمع ماذا يقول الفلسفى الثرثار في الشمس، يقول: هى كتلة عظيمة من المائع النارى تدور حول نفسها فى مستقرها، تطايرت منها شرارات وهى أرضنا وسيارات أخرى فتدور هذه الأجرام العظيمة المختلفة فى الجسامة.. ضخامتها كذا... ماهيتها كذا..."

فانظر ماذا أفادتك هذه المسألة غير الحيرة المدهشة والدهشة الموحشة، فلم تفدك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحياً ولا غاية ولا فائدة دينية.

فقس على هذا لتقدر قيمة المسائل الفلسفية التى ظاهرها مزخرفة وباطنها جهالة فارغة. فلا يغرنك تشعشع ظاهرها وتعرض عن بيان القرآن المعجز[1] .

سلاح القرآن فى مواجهة دعوى الفلسفة:

ينعى النورسى على الذين طعموا الفكر الإسلامى بالفكر الفلسفى أى بارزوا الفلاسفة بفكر فلسفى بحت ويرى النورسى أن هذا المسلك لا يعطى الصورة الحقيقية للإسلام، لأن جدوى هذا العمل معروفة مقدماً . يقول النورسى:

" والمفكرون ارتضوا بقسم من دساتير الفلسفة البشرية أى يقبلون شيئاً منها ، ويبارزون بها الفلاسفة ويعدون قسماً من دساتيرها كأنها العلوم الحديثة فيسلمون بها إذ يطعمون بذلك شجرة الإسلام بأغصان الحكمة التى يظنونها عميقة الجذور. وكأنهم بذلك يقوون الإسلام. ولكن لما كان الظهور

(١) المكتوبات ٢٧٠ وما بعدها.

على الأعداء بهذا النمط من العمل قليل ولأن فيه شيئاً من التهوين بشأن الإسلام. فقد تركت ذلك المسلك وأظهرت فعلاً أن أسس الإسلام عميقة وغائرة إلى درجة لاتبلغها أبداً أعمق أسس الفلسفة بل تظل سطحية تجاهها"[1] .

لماذا هذا الموقف من الفلسفة:

وهو سؤال فرض نفسه وجدير بالوقوف عنده والإجابة عنه ليست خافية على ضوء منهج وفكر الإمام النورسي إذ الواضح بجلاء فكر الرجل أن الإسلام هو الحقيقة اليقينية الكبرى فى هذا الوجود. فالفلسفة مقبولة إذا تبعت الحقيقة اليقينية الكبرى هذه، والفلسفة مرفوضة إذا خالفت هذه الحقيقة. فحين تصطدم الفلسفة بالإسلام وحقائقه الإيمانية تكون الفلسفة مجردة من الحقيقة وقد عبر عن ذلك بقوله: أما إذا انفرجت الشقة بين الفلسفة والدين. احتشد النور والخير كله فى سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور كلها حول سلسلة الفلسفة[2].

ويقول فى الكلمات أيضاً :

" إن الفلاسفة لم يفهموا الإنسانية ومهمتها فى الكون وتجاهلوا الحكمة الإلهية. وأنكروا النظام الموجود بالكون لتجاهلهم الحكمة المبثوثة فى أجزاء هذا الكون. فقابلوا بالكفر دلائل الوحدانية. وما الفلسفة الملحدة إلا سفسطه. لاحقيقة لها و تحقير للكون لأنها تتجاهل نظامه. إذ أنكروا ربوبية الخالق وبدل أن يدرك الفلسفى بعلمه الجزئى علم ا لله المطلق لم يعترف بوجود ا لله أصلاً . وهكذا نسى (أنا) حكمة خالقه ونظر إلى نفسه بالمعنى الاسمى تاركاً وظيفته الفطرية معتقداً بنفسه أنه المالك ولا مالك غيره ".[3]

---

(١) المكتوبات ٥٦٩ .

(٢) الكلمات ٦٣٩

(٣) انظر الكلمات ٦٣٧- ٦٣٨

بين حكمة الفلسفة وحكمة القرآن :

ويعقد النورسى مقارنة شديدة السخونة والمنازلة فى عنف وذلك بين الفلسفة والقرآن:

" أما ما تعطيه حكمة الفلسفة وحكمة القرآن من تربية للمجتمع الإنسانى فهى:

أن حكمة الفلسفة ترى " القوة" نقطة الاستناد فى الحياة الاجتماعية.

وتهدف "المنفعة " فى كل شئ.

وتتخذ " الصراع" دستوراً للحياة.

وتلتزم " بالعنصرية والقومية السلبية" رابطة للجماعات.

أما ثمراتها فهى إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التى من شأنها تأجيج جموح النفس واثارة الهوى.

ومن المعلوم أن شأن " القوة " هو " الاعتداء".. وشأن " المنفعة" هو " التزاحم" اذ لا تفى لتغطية حاجات المجتمع وتلبية رغباتهم.. وشأن " الصراع" هو " النزاع والجدال".. وشأن " العنصرية" هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى.

ومن هنا تلمس لم سلبت سعادة البشرية، من جراء اللهاث وراء هذه الحكمة. أما حكمة القرآن الكريم فهى تقبل " الحق" نقطة استناد فى الحياة الاجتماعية، بدلاً من " القوة".. وتجعل " رضى الله سبحانه" ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من " المنفعة" .. وتتخذ دستور "التعاون" أساساً فى الحياة، بدلاً من دستور " الصراع.. وتلتزم برابطة " الدين"والصنف [1] والوطن لربط

---

(١) المقصود : بالارتباط الموجود ضمن الصنف الواحد من الناس المنسجمين فى الميول والأفكار والأذواق والطبائع كأرباب الحرف والمهن .

فئات الجماعات بدلاً من العنصرية والقومية السلبية.. وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالى الأمور،وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية.

ان شأن " الحق" هو " الاتفاق" .. وشأن " الفضيلة" هو " التساند" .. وشأن دستور " التعاون" هو اغاثة كل للآخر" .. وشأن " الدين" هو " الأخوة والتكاتف" .. وشأن " إلجام النفس" وكبح جماحها واطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو سعادة الدارين".

وفى حوار النورسى ومنازلته ورده على دعاوى الفلسفة القديمة شرقية كانت أم غربية وعلى الفلاسفة المعاصرين والمحدثين ومجادلتهم فى قضايا الألوهية والقيم البشرية على هذا المستوى الرفيع دليل على اتساع علمه، بهذا الجانب الساخن وتمكنه .. وتلك ميزة ظاهرة يقوم عليها ألف برهان.

وبعد هذا العرض الفلسفى الساخن يتضح لماذا وقف النورسى من مناهج الفلسفة موقف الرفض فى معرض الاستدلال على اليقين.

الفصل الرابع

النورسي والحاجة إلى تجديد علم الكلام

موقف النورسي من مناهج علم الكلام :

يحدد النورسي موقفه بشكل حازم من مناهج علم الكلام معلنا أن هذا العلم بوصفه الراهن ومع تغير الظروف الثقافية والعلمية والفكرية عما كانت عليه أيام علماء الكلام السابقين. هذا العلم ومناهجه القديمة لا يـــؤدى إلى معرفة يقينية كاملة ؛ بل لا يورث الاطمئنان القلبي فيما هو موجود به ، مـن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تجديد هذا العلم.

يقول النورسي في المكتوبات :

" أن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليســـت هـــى المعرفـــة الكاملـــة، ولا تورث الاطمئنان القلبي. في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز تصبح معرفة تامة وتسكب الاطمئنان الكـامل فى القلوب " .

وتكرر ذلك مراراً فى رسائل النور .

وقبل الدخول إلى ذلك المجال عند النورسي فعلم الكلام نشأ فى القرن الأول الهجرى فى عهد الأمويين لضرورة وحاجة ملحة ولازمة. وذلك للـــرد على المنافقين وأصحاب الشبهات من غير المسلمين أو من الدخـــلاء علـــى الإسلام من اليهود والنصارى وأصحاب الثقافات اليونانية الفلسفية.

إذاً فهذا العلم من العلوم الضرورية باعتباره العلم الذى يدافـــع عـــن العقائد الإسلامية بالحجج العقلية كما يقول علماء الفلسفة الإسلامية[1].

وإذا كان كل علم يمتاز سواه بموضوعه الذى يبحث فيـــه، وطبيعـــة المشكلات التي يدرسها، وبالغاية التي يتوخى الوصول إليها، وبالمنهج الـــذى يسلكه أهله فى الوصول إلى الحقائق العلمية.

---

(١) علم الكلام ، د. السيد محمد سيد ، كلية الدراسات العربية جامعة المنيا ص ١٧

فعلم الكلام موضوعه: الأحكام الاعتقادية أو الذات الإلهية وصفاتها وأفعالها وعلاقاتها بالكون والإنسان.[1]

إذاً علم الكلام يستمد موضوع بحثه ودراسته من النص الديني ، أى من النقل لا من العقل، من الشريعة الدينية لا من الأحكام العقلية. ولابد أن تكون غايته الدفاع عن هذه الشريعة سواء بشرح نصوص القرآن والسنة أو بتفسيرها أو بالتعليق عليها أو بإيراد الحجج العقلية المؤيدة لها. لذلك كان العقل والنقل من شأنهما معاً أن يكونا عمدة المؤمن فى الوصول إلى الحقيقة والسعى نحوها[2] .

وبالبناء على هذا يتضح ما يأتى:

١ - أن علم الكلام يتردد منهجياً بين قطبين أساسيين هما النقل والعقل.

٢ - علم الكلام يعتقد القواعد الإيمانية أولاً ويقر بصحتها والإيمان الجازم بها ثم يتخذ الأدلة العقلية للبرهنة عليها.

طرق المعرفة عند علماء الكلام :

يتفق علماء الكلام جميعاً على أن النظر العقلى طريق للمعرفة الإعتقادية إلى جانب الدليل السمعى. وأن المعارف الكلامية تستمد من العقل ومن النقل جميعاً ، لكنهم يختلفون فى تقديم أيهما على الأخر أو فى الجمع بينهما معاً.

فواصل ابن عطاء شيخ المعتزلة يقول: إن الحق يعرف بوجوه أربعة: كتاب ناطق ، وخبر مجمع عليه ، وحجة عقل ، إجماع من الأمة.

---

(١) المرجع السابق ص ١٧-١٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٦.

وأبو الحسن الأشعرى شيخ الأشاعره يقرر أن جملة الطرق التى تـدرك بها العلوم خمسة: العقل والكتاب والسنة والإجماع والقياس.

لكن الحكم العام على الكلام هو أن الاعتداد بالعقل هو الطـابع العـام فى الفكر الإسلامى. ولن ندخل فى قضية العقل والنقل عند الفرق الكلامية. وهو العقل أصل الشرع أم العكس. ولا فى قضيـة دلالـة النصـوص الشـرعية على معانيها وهل هى ظنية أم قطعية. فقد انتهـى الأمـر بشـأنها إلى الكتـاب العزيز قطعى الثبوت قطعى الدلالة فى أحكامه إلا اليسـير منـه .. فهـو ظنـى الدلالة. وأن الدليل السمعى هو الكتـاب والسـنة والإجمـاع. أمـا الأحـاديث النبوية فمنها المتواتر والمشهور وخبر آحاد والمتواتر والمشهور قطعيـاً الثبـوت. ويفيد أن العلم اليقينى بالضرورة. والخلاف فـى مـدى حجيـة خـبر آحـاد . ومنهج الشافعى أن العبرة باتصال السند فمتى اتصل سند الحديث وسلم مـن الجرح فهو حجه. كذلك الإجماع الذى يبلـغ حـد التواتـر أو الاسـتفاضة بمـا تطمئن إليها النفوس. لذلك لا يمكن المجازفة بوصف الأدلـة السـمعية بكونهـا ظنية الثبوت أو الاعتراض عليها بسبب هذه الشبهة.

بعد هذا الاستطراد لماذا يرى الإمام النورسى أن علم الكلام لا يصلـح بوصفه القائم، وأن المعرفة المستنبطة بدلائـل هـذا العلـم ليسـت هـى المعرفـة الكاملة ولا تورث الاطمئنان القلب..؟

- هل في مناهج هذا العلم في الإثبات أم في صياغته وقوالبه ومصطلحاته التى لم تعد مناسبة لإنسان هذا العصر أم فى موضوعاته؟

الخلاصة ما هى أزمة علـم الكـلام. التـى بـررت أن يقـول النورسـى قولته السابقة فيه والتى دعته إلى التجديد؟

ابتداء .. النورسى عالم أصولى متكلم. سار على منهج سـلفه العلمـاء وهو الشافعى المذهب أمـين علـى مذهبـه كمـا سـجل ذلـك فـى الرسـائل . مصادر الشرع عنده القرآن والسنة والإجماع والقياس.

وهو متكلم: ينصب جهاده العلمـى فـى الغـالب علـى اثبـات الـذات الإلهية. وصفاتها وأفعالهـا وعلاقاتهـا بـالكون والإنسـان وإثبـات الحاجـة إلى النبوة واليوم الآخر والحساب والجزاء ، وهذه هى موضوعات علم الكلام.

وطريق المعرفة اليقينية عنده هى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وبراهين عقلية منطقية بل هى براهين قرآنية.

فما وجه القصور فى هذا العلم؟ وما وجه التجديد فيه عند النورسى؟

يقول الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد فى كتابه النورسى متكلم العصر الحديث " أن النورسى ترك علم الكلام القديم – فى حديثه التجديدى – الجامد عن الله والنبوة واليوم الآخر ولجأ إلى منهج القرآن للدمج بين هذه الحقائق الكونية فى نسق واحد. يعتمد صفحات الكون المفتوحة المنقوشة بحقائق الأسماء الحسنى بحيث يتحول فى النهاية كل اسم إلى كون قائم بذاته يتجسد فى العقول وينطبق على القلوب ويتجلى على السلوك معنى الله والنبى واليوم الآخر.[1]

وهذا يفهم منه أن النورسى مجدد فى وسائل المعرفة فى علم الكلام متجنباً مصطلحات هذا العلم وغموضها وأساليبها. متجهاً إلى القرآن الكريم مباشرة وإلى الكون الفسيح المفتوح وبالتأمل فى الكتاب المسطور كتاب الله تعالى وفى الكتاب المنظور الكون والإنسان يصل إلى اليقين الجازم الذى يتجسد فى العقول وينطبق على القلوب وتتجلى على السلوك معنى الله والنبى واليوم الآخر.

ويقول في موضع آخر من كتابه المذكور في أعلاه :

لقد أنزل النورسى – بالاستناد التام إلى القرآن الكريم – علم الكلام إلى علم موصول ، يعقل كل فرد كيانه في هذا العصر . فيمتزج بعقله لأنه حول الكائنات التى حوله ، من الأسرار الدقيقة المشاهدة لعالمى الأنفس والآفاق إلى علم الكلام مفتوح أمامه صفحة واضحة يقرأ فيها فيجد البرهان

---

(١) د. محسن عبد الحميد ص ٩٢ – النورسى متكلم العصر الحديث

التام على خالقه ويشعر بأنس عجيب مع الكائنات كلها فيقرأ فيها نفسه التي كانت ضائعة تائهة في بيداء ظلمات الانحراف والكفر والشرك والظلم [1] .

أما الإمام النورسي نفسه فيقول :

إن علماء الكلام، وإن تتلمذوا على القرآن الكريم وألفوا ألوف الكتب- بعضها عشرات المجلدات – إلا انهم لترجيحهم العقل على النقل كالمعتزلة عجزوا عن أن يوضحوا ما تفيده عشر آيات من القرآن الكريم وتثبته إثباتا قاطعاً بما يورث القناعة والإطمئنان ، ذلك لأنهم يحفرون عيوناً في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب، أي بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة أما . الآيات الكريمة فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجر الماء أينما ضربت ، وتفتح من كل شئ نافذة تدل على الصانع الجليل وتعرفه" [2].

إذا فإن نقد النورسي لعلم الكلام منصب على وسائل الإثبات وعلى الحالة التي وصل إليها هذا العلم من التعقيد. والصراعات الفلسفية بين الفرق كالخلاف في قضية العقل والنقل التي أدت الى الشلل في الإثبات وأبعدت علم الكلام عن تحقيق غايته ، وهي الدفاع عن أصول العقيدة.

خصائص المنهج النورسي
في الاستدلال على أصول العقائد

يمكن استنباط العناصر الأساسية للمنهج النورسي في علم الكلام الجديد على وفق منهجيته في النقاط الآتية:

١- القرآن الكريم والسنة النبوية هما الدليل على إثبات " واجب الوجود" وإثبات النبوة والغيبيات. وليست هناك حاجة إلى ماقال به علماء الكلام

---

(١) المرجع السابق ص ٨٠

(٢) الكلمات ص ٥١٤

من مصطلحات فلسفية غامضة وإن أدت إلى معرفة فليست بالمعرفة اليقينية.

٢- لم يدخل النورسي في متاهات الخلاف حول قضايا هذا العلم كقضية العقل والشرع أو قضية الحسن والقبح وغيرها بل جعل القرآن استناده كما قال فيما قال به القرآن والسنة وهو الشرع الواجب الإتباع.

٣- الوصول إلى اليقين من القرآن الكريم والنظر في الكون بالتجول بحثاً عن الحق في أسرار هذا الكون وفى الكتاب وصولاً إلى جمال وجلال الحقيقة الكونية.

٤- يمكن القول بأن الإمام النورسي جدد في أسلوب هذا العلم وطرائقه في البرهنة ، وفى موضوعاته بإضافة الكون والإنسان موضوعاً لهذا العلم وإن كان قد سبق إلى ذلك كثيرون على رأسهم الأستاذ الشيخ محمد عبده الذى يعتبر أول من نبه إلى ضرورة التجديد في هذا العلم بل جعل التجديد فيه ضرورة محتمة. ووصف الدواء لهذا العلم بتحرير الفكر من التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور عصر الخلاف والرجوع في كسب المعارف إلى ينابيعها الأولى باعتباره ضمن موازين العقل البشرى التي وصفها الله لترد من شططه وتقل من خلطه وضبطه لفهم كلمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للفهم باعثاً على البحث في أسرار الكون. داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العقل وكل هذا أعده أمراً واحداً" [1] .

(١)محمد عبده – وتجديد الفكر – د. محمد عمارة – ص ٤٠ وما بعدها.

٥- ترك النورسى أساليب علم الكلام وصياغته المغلقة وقضاياه الخلافية وأخذ بيد قارئه مسلماً كان أو غير مسلم وجهاً لوجه أمام لوحة الوجود كله بسمائه وأرضه ونجومه وبحاره وأنهاره ونباتاته وحيواناته، وزلازله وبراكينه وأمطاره وجفافه وجعل الفرد يقرأ بنفسه حقائق التوحيد ودقائق العقيدة الإسلامية بمعنى: أن فهم القرآن بمجموعه ومقوماته الأولية ونتائجها وبمعارفه جميعاً وبالإطلاع على حقائقه في عالم الأنفس والأفاق هو الذى يرسم الموازنة الكاملة في فكر العالم المسلم والعارف المسلم.

ويقول النورسي:

" إن القرآن الكريم قد حافظ على التوازن في بيان التوحيد بجميع أقسامه مع جميع مراتب تلك الأقسام وجميع لوازمه. ولم يخل باتزان أى منه: ثم انه حافظ على الموازنة الموجودة بين الحقائق الإلهية السامية كلها، وجميع الأحكام التى تقتضيها الأسماء الإلهية الحسنى جميعها مع الحفاظ على التناسب والتناسق بين تلك الأحكام. ثم إنه قد جمع بموازنة كاملة شئون الربوبية والألوهية ". [1]

إذاً النورسي وحد المنهج الشامل في القرآن الكريم والسنة النبوية واستنبط منها منهجاً كونياً وحضارياً شاملاً فهو يتكلم بلغة ابن العصر ويفكر بعقل عصره ومنطقه ويواجه به مشاكل عصره مع فهم شديد للتجارب الإنسانية العامة من خلال موازنة العلم وقوة الحجة مع الإيمان العميق .

٦ – التأمل في الكون والإنسان بحثاً عن الحق في أسرار هذا الكون والانتفاع بنتائج العلم الحديث في الطبيعة والكيمياء والرياضيات وغيرها، وجعلها

---

(١) انظر الكلمات ١٧٣ – ٣٣ – ٣٤٦

براهين ومقومات لاستدلالاته مما يميز منهج النورسي. وكانت النتيجة الحتمية هي تجليات الأسماء الحسنى في الكون نتيجة هذا النظر في انتظام الكون المادى بشمولية قوانينه وحركته المستمرة وتجدده الدائم وترابط أجزائه فالنورسي جعل الكون والإنسان موضوعاً لتأملاته العميقة واستنبط نتائجه الدقيقة. وبهذه القاعدة الفكرية الواقعية واجه النورسي هجمة الحضارة المادية والفلسفات الملحدة الزاحفة.

٧ – أما عن طرق الوصول إلى اليقين ؛ فهذا هو موضوع تالٍ ويمكن أن نرصد في هذه الفقرة أن النورسي وهو يبعث الحياة العصرية في علم الكلام لم ينطلق من مذهب معين ولا من علم معين. وقد اعتمد الاستدلال والتأمل طريقين للبرهنة، فتوسع في الاستدلال التمثيلي وفى القياس بدرجاته ففي الكلام عن وحدانية الله تعالى اعتمد على الدليل العلمى في شرحه لمعنى (القيومية) دليل الحياة للاستدلال على الخالق العظيم ودليل الإمكان ودليل العناية الإلهية بخلقه ودليل الإختراع ودليل الوجدان الحى ودليل الإجماع ثم دليل الاستقراء الكونى.

ويلاحظ الباحث أن النورسي دائماً يسند دليلاً بدليل ليعضد كل منهما الآخر ويمكن الإشارة السريعة، لذلك فيما يلي:

(أ) عند الحديث عن صفات الله تعالى لم يسلك طريق الأولين ولكن يحاول إثبات أن حقائق الموجودات تستند إلى أسماء الله الحسنى.

(ب) في كلامه عن وحدانية الله تعالى وأن التوحيد هو مهمة الأنبياء الأساسية. كان منهج النورسي عقلانياً علمياً متأملاً ملاحظاً ومشاهداً في استنتاجاته التي انتهى فيها إلى القواعد اليقينية القاطعة بأن الله الواحد هو الذى أبدع هذا الكون وهو الذى يسيره بعناية فائقة إلى غايات عظيمة.

(ج) في دراسته عن الإيمان باليوم الآخر؛ وهو الركن الثاني في العقيدة الإسلامية. تحدث في هذه المسألة بعقلانية ووجدان معاً ولجأ إلى الاستقراء التفصيلي من حياة الناس اليومية ومن المشاهدات في الطبيعة المنظورة والتحليلات الفكرية ليستنتج استقراء قانون الحياة والموت. فلم يقف عند الدليل العقلي هنا بل لجأ إلى استخلاص الدليل العلمي القاطع من قانون الحياة والموت لإثبات ضرورة الحشر والحساب والجزاء. ويضيف إلى ذلك دليل التواتر ممن لا يحصون أبداً من أصحاب العقول الرشيدة في أن الحساب ضرورة وأنه آت لاشك فيه.

(د) في دراسته عن إثبات النبوة باعتبارها الركن الثالث في العقيدة الإسلامية ناقشها عقلاً وعلماً في أسلوب غاية في القوة ومؤيدة بضرورة اللزوم العقلي إلى اليقين الجازم وأن سر نظام العالم يقوم على النبوة، إذ لا يليق بالخالق المنعم أن يحرم عباده من نعمة الهداية والتوجيه.

(هـ) في دراسته عن إعجاز القرآن الكريم .. لجأ إلى أسلوب المواجهة الصريحة مع مبادئ الحضارة المادية المعاصرة حتى يتجلى لكل ذى عقل أستاذية القرآن الكريم كما يقول النورسى في الكلمات .

(و) في حديثه عن بلاغة القرآن الكريم ومعجزات الرسول ﷺ استند إلى الدليل العقلى والتاريخى والأدلة النقلية ومزج بين هذه جميعاً.

(ز) تناول النورسى مسألة القدر تناولاً قوياً باعتباره موضوعاً حير السابقين واللاحقين. بين كلمة الله في كتابه العزيز في هذه القضية الشائكة وحل التشابك بين ما قال من علماء السلف أن الإنسان فاعل حقيقة والله هو الخالق حقيقة وبين ما ذهب إليه المعتزلة الذين قالوا إن الإنسان يخلق أفعاله الاختيارية وما قال به الأشاعرة إن الله هو الخالق للفعل والعبد هو الذى يكسبه لم يقف النورسى عند كل هذه المقولات بل وضح في

بساطة من أن الموقف المنصف لذلك الخلاف خلاف لفظي فقط. فالجميع يقررون أن الإنسان مسئول عن عمله لأنه مكلف شرعاً أنـــاط الله بـــه الخلافة في الأرض. ومسألة القدر مسألة ايمانية وليست مســـألة علميـــة نظرية، فالمؤمن يعطى لله كل شئ ويحيل إليه كل أمر وما يزال هكذا حتى يحيل فعله ونفسه إليه، ولكى لاينجو من التكليف والمسئولية يبرز أمامـــه الجزء الاختيارى قائلاً له: قف أنت مسئول أنت مكلف. ولكن لكى لا يغتر بعمله يواجهه القدر: قائلاً أعرف نفسك وحدّك ، فلســـت أنـــت الفاعل.

فالجزء الاختيارى هو أعلى مراتب الإيمان. والقدر ينقذ الإنسان مـــن الشرور والغرور وينجيه من الشعور بعدم المسئولية.[1]

ثم يقول الإمام النورسي:

هناك فرق بين خلق الشيء، وبين استعمال هذا الشيء. فخلق الشيء ليس شراً . ولكن الشر في كسب الشر وفعله. والإنسان قد اكتسب الشـــر فقامت مسئوليته فالشر يعود إلى كسب العبد له واســـتعداده. فخيـــارات الإنسان هى التى تظهر الشر على أصل الخلق الإلهى[2]. فالعلم في حد ذاتـــه ليس شراً . ولكن الشر في استخدام هذا العلم استخداماً سيئاً يوجه إلى الشر وهذا ناتج عن فعل الإنسان وليس من أصل وجود العلم.

(ح) في قضية الأسباب والمسببات؛ وهى مرتبطة بكلامهم عن القدر وتدخل في مسألة شائكة مع المتكلمين وفى نواح متعددة. فالنورسى يقـــول: إن القدر يتعلق تعليقاً قدراً واحداً بالسبب وبالمسبب معـــاً – فـــالإرادة لا

---

(١) انظر الكلمات : الكلمة السادسة والعشرون

(٢) انظر : الكلمات ٥٤٦ – ٥٤٧

تتعلق مرة بالمسبب ثم بالسبب مرة أخرى– أى أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب لذا يجب ألاّ يقال: مادام موت الشخص الفلانى مقدراً في الوقت الفلانى ، فما ذنب من يرميه ببندقية بإرادته الجزئية؛ إذ لو لم يرمه لمات أيضاً ؟

سؤال : لم يجب الا يقال؟

الجواب: لأن القدر قد عين موته ببندقية ذاك، فإذا فرضت عدم رميته، عندئذ تفرض عدم تعلق القدر.فبم تحكم إذن على موته. إلا إذا تركت مسلك أهل السنة والجماعة ودخلت ضمن الفرق الضالة التى تتصور قدراً للسبب وقدراً للمسبب، كما هو عند الجبرية . أو تنكر القدر كالمعتزلة . أما نحن أهل الحق فنقول : لو لم يرمه فان موته مجهول عندنا. أما الجبرية فيقولون: لو لم يرمه لمات أيضاً . بينما المعتزلة يقولون: لو لم يرمه لايموت.

وفى ختام هذا الفصل لايسع الباحث إلا أن يقول: إن الإمام النورسى في تجديده لعلم الكلام قد دخل إلى الكون كله كدليل على قدرة خالقه وصانعه وبارئه. وكان الرجل عقلانياً علمياً محسوساً ليؤكد أن النظام الدقيق الموجود في الكون في عالم الجماد وعالم الحيوان وعالم الإنسان من الذرة إلى المجرة لدليل قاطع على أنه مخلوق لله خالقه العظيم القادر المتصف بأسماء وصفات تتجلى فيه تجلياً رائعاً كما يقول النورسى في الكلمات[1].

---

(١) انظر الكلمات: ١٦١ – ٣٧٥ – ٤١٩

الفصل الخامس

طرق الوصول إلى اليقين عند النورسى

انتهى الفصل الثانى إلى نتيجة نهائية وهى أن اليقين عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسى،هو معنى عام واسع هو (الإيمان التحقيقى) أى اليقين الجازم ذو المراتب المتعددة والتى أبرزها مرتبة "عين اليقين" ثم تليها مرتبة " علم اليقين" وفى الذروة السامية مرتبة "حق اليقين".

وأن علم الكلام بوضعه الكائن عند الأقدمين لا يوصل إلى اليقين الكامل، كذلك رفض النورسى الإلهام والحدس كطريق إلى الإيمان الحقيقى، لا إنكاراً منه للإلهام، ولكن لأنه طريق وجدانى أو مشرب ذوقى. ورفض طرق الفلسفة في المعرفة لأنة رأى أنها لم تصل إلى ازالة الشكوك والريب. وانتهى إلى أن المنهج القرآنى وحده هو المنهج الأقوم في توضيح وإثبات وتأكيد الحقائق والإيمانية وأصول العقائد. وأن المعرفة الإلهية ترتفع بكثير عما أوضحه أولئك العلماء والأولياء. لذلك نجد النورسى قد حشد براهينه وهو يتصدى للتيارات الفاسدة والمدمرة . ونجد أنه يعقد البرهان ببرهان آخر معه. وأستناده كما قال هو وكرر أن هذه البراهين فيض من القرآن الكريم للحفاظ على إيمان المؤمنين.

فالنورسى لم ينطلق من علم بعينه ولا على وفق منهج معين ولا من مذهب معين كذلك لم يلتزم منهجاً استدلالياً واحداً بعينه.

فهو منطق عقلانى صارم حين يكون المنطق هو السلاح اللازم لكشف الحقيقة لذلك فقد حمل على السفسطة لمجرد الجدل والمغالبة.

وهو متأمل مفكر متدبر في الإنسان والكون حيث يكون التأمل والنظر والتدبر هو الطريق إلى استخلاص زبدة الرأى والرواية عن طريق العقل والتأمل المدرك لحقائق الأمور والمميز بينها والموازن بين الأضداد، وحين يكون التأمل اعتباراً وتبصراً في مواجهة الضلال والعنف.

وهو فلسفى متمكن عارف بدروب الفلسفة ومداركـــها ورجالهـــا وذلك حين تكون الفلسفة عشقاً للحقيقة المطلقة وبحثاً عنها في كنف القرآن الكريم والسنة الشريفة. وحين تكون الفلسفة منقادة للإسلام وفى طاعته.

وهو صوفى حين يكون التصوف مجاهدة للنفس. وأن الإلهام والكشف ليس هو أعلى المراتب إلى جانب إنه لا يصلح وحده دليلاً ظاهراً منضبطـــاً على الإيمان الحقيقى (اليقين الجازم). وأقصى ما يمكن أن يصلح له الإلهـام في مقام البرهنة على اليقين انه حجة على صاحبه فقط.

وهو متكلم ضليع عندما يكون علم الكلام متحرراً مـــن القوالـــب الجامدة والقضايا الفلسفية الغامضة والمصطلحات المغلقة. والنورسى متكلـــم مجدد في علم الكلام لأنه يخاطب عقل وقلب الإنسان . ويأخذه إلى الكـــون الفسيح في شمولية عميقة يجد فيها الإنسان آماله وأحلامه وحياته المتطـورة، ويحفظ عليه توازنه وسط أعاصير الحياة المعاصرة المعقدة.

وهو عالم سنى شافعى أصولى أمين على مذهبه حين يقـــع الخـــلاف حول مدى حجية خبر الآحاد فانحاز إلى مذهب إمامه وأخذ بخـــبر الواحـــد بشروط وضوابط وأخذ بالإجماع والقياس على مذهب الإمام الشافعى.

وحين نشق الطريق إلى توضيح طرق النورسى في الوصول إلى اليقين؛ نجد أنه من الضرورى القول بأن الرجل بدأ بالتزام وجوه مخاطبات القـــرآن الكريم كما أوردها الحافظ جلال الدين السيوطى في " كتاب الإتقان" والتزم البراهين القرآنية وأدلتها.

وهو حريص على أن يعضد الدليل بدليل برهانى آخر ويتخذ من نتائج العلوم الطبيعية مقدمات لنتائجه وثبات حقائق الايمان وأصول العقيدة وهـــو مع ذلك مجدد على الأصالة ، حيث أدخل إلى موضوعات علـــم الكـــلام الإنسان والكون.

ويضم هذا الفصل الفروع الآتية :

الفرع الأول : براهين القرآن وأدلته عند الإمام جلال الدين السيوطى ومدى التزام النورسى بها ، مقارنات.

الفرع الثانى : ويضم المباحث الآتية:

(أ) النظر والتأمل عند النورسى كطريق لليقين في إثبات واجب الوجود.

(ب) النظر والتأمل بالتساند مع القياس كطريق لليقين في استدلالات النورسى.

(ج) القياس التمثيلى كطريق إلى اليقين.

(د) الاستقراء التام كدليل إلى اليقين.

الفرع الثالث: ويضم المباحث الآتية :

(أ) توظيف نتائج العلم الحديث كأدلة في إثبات أصول العقيدة .

(ب) الأسباب والمسببات كدليل لليقين – مقارنة النورسى بالغزالى.

(جـ) الدلائل:

١ – دليل العناية.

٢ – دليل الاختراع.

٣ – دليل الإمكان.

الخاتمة

الفرع الأول

براهين القرآن وأدلته

عند الإمام جلال الدين السيوطي:

وقبل أن ندخل إلى مناهج النورسى في الوصول إلى اليقين نعـــرض في شئ من الإيجاز لما أورده الإمام جلال الدين السيوطى في كتاب الإتقان في علوم القرآن عن مخاطبات القرآن وبراهينه وأدلته . لنرى كيـــف اســتفاد النورسى من هذا المنهج وماذا أخذ منه والتزم به.

يقول الإمام جلال الدين السيوطى في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" وفى بيان براهين القرآن وأنواعها:

" قالت العلماء : قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع الـــبراهين والأدلة. وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من طيـــات المعلومـــات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به " .

وذكر مخاطبات القرآن وطرق براهينه. وهو منهج الأقدمـــين وهـــو الضابط لدى العلماء في فهم القرآن بالقرآن وفى فهم القرآن بالسنة وفى فـهم القرآن بالعقل عبر أطر مخاطبات القرآن للعقل الإنسانى بدرجاته المختلفة:

العقل الوازع والعقل المدرك. والعقل الحكيم، والعقل الرشيد. كمـــا يقول الأستاذ العقاد في كتابه "التفكير فريضة إسلامية" ومن خلال عـــرض مشاهد النفس والآفاق والتغلغل في أسرارها وذلك على نحو ما سنعرض في الفروع التالية عند النورسى.

الفرع الثانى
النظر والتأمل في تساند مع الاستدلال المنطقى
طريق إلى اليقين عند النورسى

يعتمد الإمام النورسى على البراهين المنطقية فيما يريد إثباته من خلال مناقشة هادئة. مع استدلال منطقى حاسم وسليم وصحيح وذلك من خلال طريقين:

الأول : الجمع بين أكثر من دليل في حالة تساند وتعاضد وتوافق قارئه في شبكة من الأمثلة والاستدلالات العلمية والعقلية كى يصل بقارئه إلى ليضع اليقين بإزالة الشكوك والأوهام.

والطريق الثانى: قيامه بتوظيف نتائج العلم الحديث في إجراء عملية استقراء ما فى الكون من قوانين ونظام واتساق عن طريق التمثيل ليصل بقارئه إلى اليقين.

التأمل والنظر والاستدلال

والتأمل والنظر بالعقل الذى يفكر ويستخلص زبدة الرأى والروية . ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتصبر ويتدبر، ويحسن ذلك.. هو العقل الذى خاطبه القرآن في كثير من آياته، وهو المنهج الذى سار وسيطر في منهج النورسى بالتأمل في الأنفس والآفاق . فاكتسب حضوراً وسكينة إيمانية وهو ذلك المنهج الذى يقول عنه النورسى أنه يسوق صاحبه إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى فتنسكب الطمأنينة في القلب وعلى كل حال فإن هذا التأمل درجات ومراتب عدة وحظ كل شخص ما يكتسبه ويستفيد منه حسب قابليته وقدراته.

ويلاحظ أن الإمام النورسى وهو يسلك طريق التأمل والاستدلال على معناه السابق يعضده بطريق آخر في عملية البرهنة.

ففي إثبات " واجب الوجود" جل شأنه وإثباته أن للكـــون خالقـــاً موجداً واحداً وأنه رب العالمين وإلههم المعبود فلا معبود ســواه. لم يســلك طرق الأولين في قولهم.. إن الله واحد لا شريك له، ولا شئ مثله، ولا شـئ يعجزه ولا إله غيره، وأن التوحيد الخالص الذى بعث الله به الرسل وأنـــزل الكتب ثلاثة أقسام :

توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات :

لم يقل النورسى كل هذا بطريق مباشر، ولكنه وضع الإنسان أمـــام قضية منطقية وقدم له الأمثلة التوضيحية التى لا تنتهى بالعقل إلا إلى الإقـــرار بذلك من غير حاجة إلى وضع المسألة في صورة مادة معرفية مصطلحية. بـل لجأ إلى أسلوب التحليل المنطقى المتأمل السهل مع ضرب الأمثلـــة ولفـــت الأنظار، يقول النورسى:

" لنفرض أن هناك سلطاناً، وأن لهذا السلطان دائرة عـــدل، فـــهذه الدائرة تكون ممثلة لأسم " السلطان العادل" وأن هذا الســلطان في الوقـــت نفسه هو " خليفة" إذن فان له دائرة تعكس فيها ذلك الاسم كما أن هـــذا السلطان يحمل اسم " القائد العام للجيش" لذا ستكون له دائـــرة عســكرية تظهر ذلك الاسم . فالجيش مظهر لهذا الاسم. والآن إذا قيـــل بـأن هـــذا السلطان هو " السلطان العادل" فقط وانه لا توجد سوى دائرة العدل الـــتى تعكس اسم السلطان الأعظم، ففى هذه الحالة تظهر بالضرورة بين موظفـــى دائرة العدل صفة اعتبارية – غير حقيقية – لأوصاف علماء دائرة الشـــؤون الدينية وأحوالهم، أى ينبغى أن يتصور صفة ظلية وتابعة وغير حقيقية لدائـــرة الشؤون الدينية بين موظفى دائرة العدل. وكذلك الحال بالنســـبة للدائـــرة العسكرية، إذ لابد أن تظهر أحوالها ومعاملاتها بشكل ظلى وفرضى وغـــير حقيقى بين موظفى دائرة العدل وهكذا .

إذن ففي هذه الحالة فان اسم السلطان الحقيقي وصفة حاكميته الحقيقية " الحاكم العادل" وحاكميته في دائرة العدل، أما صفاته الأخرى مثل " الخليفة" و " القائد العام للجيش" .. الخ، فتبقى نسبية وغير حقيقية ، بينما ماهية السلطان وحقيقة السلطنة تقتضيان هذه الأسماء جميعاً بصورة حقيقية، وأن الأسماء الحقيقية تتطلب هي الأخرى دوائر حقيقية وتقتضيها.

وهكذا فإن سلطنة الألوهية تقتضي وجود أسماء حسنى حقيقية متعددة لها، أمثال: الرحمن ، الرزاق، الوهاب، الخلاق، الفعال، الكريم،الرحيم ، وهذه الأسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها[1].

ومن هذا المثال يقول النورسي إن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية، ويقتضي توحيد الأسماء والصفات .ثم يدخل بقارئه في تسلسل استنتاجي منطقي وتدبر وتأمل عميقين في اثبات وجود الخالق العظيم فيقول:

"انه يشاهد على وجه هذا العالم، ولاسيما على صحيفة الأرض فعالية منتظمة غاية الانتظام.. ونشاهد خلاقية حكيمة في غاية الحكمة.. ونشاهد بعين اليقين فتاحية في غاية النظام– أي إعطاء كل شئ ما يلائمه من شكل وإلباسه مايلائمه من صور– ونشاهد وهابية واحسانات في غاية الشفقة والكرم والرحمة.

فهذه الأوضاع وهذه الأحوال تثبت بالضرورة وجوب وجود رب ذي جلال فعال خلاق فتاح وهاب، بل تشعر وحدانيته.

نعم ! ان زوال الموجودات دائماً وتجددها باستمرار يبينان: أن تلك الموجودات هي تجليات اسماء لصانع قدير.. وظلال أنوار اسمائه الحسنى.. وآثار أفعاله .. ونقوش قلم قدره وصحائف قدرته .. ومرايا جمال كماله.

---

(١) المكتوبات ١٠٦ - ١٠٧

وأن رب العالمين يبين هذه الحقيقة العظمى، وهذه المرتبة العليا للتوحيد بجميع كتبه وصحفه المقدسة التى أنزلها، كما أن جميع أهل التحقيق العلماء والكاملين من البشر يثبتون مرتبة التوحيد نفسها بتحقيقاتهم العلمية وكشفياتهم. وكذا الكون مع عجزه وفقره يشير إلى مرتبة التوحيد نفسها بما نال من معجزات الصنعة وخوارق القدرة وخزائن الثروة.

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى، وهو الشاهد الأزلى، بجميع كتبه وصحفه، وأهل الشهود بجميع تحقيقاتهم وكشفياتهم، وعالم الشهادة بجميع شؤونه الحكمية وأحواله المنتظمة، يتفقون بالاجماع على تلك المرتبة التوحيدية.

فمن لايقبل بذلك الواحد الأحد جل وعلا إلهاً ومعبوداً ، عليه أن يقبل مالانهاية له من الآلهة، أو ان ينكر نفسه وينكر الكائنات قاطبة، كالسوفسطائى الأحمق" (١).

ومن هنا نجد النورسى قد سلك البرهنة إلى جانب الإستدلال والتأمل طريق الحكماء والمتكلمين الذى يقول عنها سعد الدين التفتازانى في شرح كتاب " المقاصد" بأنه طريق إثبات الواجب عند الحكماء . إنه لاشك في وجود موجود فإن كان واجباً فهو المرام، وإن كان ممكناً فلابد له من علة بها يترجح وجوده من عدمه، وينتقل الكلام إليها فانه يلزم الدور والتسلسل وهو محال، أو ينتهى إلى الواجب وهو المطلوب. وهذا سبيل المتكلمين الذى لم يسلكه النورسى على هذه الطريقة فعند المتكلمين ينتهون إلى ثبوت حدوث العالم إذا لاشك في وجود حادث، وكل حادث بالضرورة له محدث فإما أن يدور في التسلسل وهو محال وإما أن ينتهى إلى قديم لايفتقر إلى سبب أصلاً

(١) المكتوبات ص ٢٩٠

وهو المراد بالواجب وكلا الطريقين مبنى على امتناع وجود الحادث أو الممكن بلا موجود وعلى استحالة الدور والتسلسل.

كل هذا لم يسلكه النورسى مباشرة على طريقة الأقدمين. وإنما بعد أن عرض على العقل البشرى وضعاً منطقياً بأن من لايقبل ما أجمع عليه أهل الحكمة في مرتبة التوحيد فعليه أن يقبل بما لانهاية من الهة أو أن ينكر نفسه أو ينكر الكائنات، ولم يترك العقل حائراً بل دخل به بعد ذلك في تسلسل استدلالى بسيط ومباشر أحياناً ليدلى إليه النهاية باليقين التحقيقى أو الإيمان التحقيقى. يقول النورسى :

" إننا كلما فتحنا أعيننا وصوبنا نظرنا في وجه الكائنات، لفت نظرنا - أول ما يلفت- نظام عام كامل وميزان دقيق شامل.. فكل شئ في ميزان دقيق ، وكل شئ يوزن بميزان حساس وكل شئ محسوب حسابه بدقة.

وإذا ما دققنا النظر، يلفت نظرنا تنظيم ووزان متجددان، أى أن واحداً أحداً يغير ذلك النظام بانتظام ويجدد ذلك الميزان بمقدار .. فيصبح كل شئ نموذجاً " موديلا" تخلع عليه صور موزونة منتظمة كثيرة جداً ..

وإذا ما أنعمنا النظر أكثر، نرى أن عدالة وحكمة تشاهدان من تحت ذلك التنظيم الوزان حتى أن كل حركة ونأمة تعقبها حكمة ومصلحة ويردفها حق وفائدة.

وإذا مادققنا النظر بإنعام أكثر، تلفت نظر شعورنا، مظاهر قدرة ضمن فعالية حكيمة في غاية الحكمة وحلوات علم محيط بكل شئ. بل محيط بكل شأن من شؤونه .. بمعنى أن هذا النظام والميراث في الموجودات كافة، يبينان تنظيماً ووزاناً عامين شاملين لكل الموجودات. وأن تلك التنظيم والوزان يظهران حكمة وعدالة شاملتين، وان تلك الحكمة والعدالة تبينان لأنظارنا

قدرة وعلماً. أى أن قديراً على شئ وعليماً بكل شئ يرى للعقل من وراء تلك الحجب.

ثم ننظر إلى بداية كل شئ ونهايته، ولاسيما في ذوى الحياة، فنرى أن بداياتها وأصولها وجذورها، وكذا ثمراتها ونتائجها على نمط وطراز بحيث كأن تلك النوى والأصول برامج وفهارس وتعاريف تتضمن جميع أجهزة ذلك الموجود، وكذا يتجمع في نتيجة ذلك الموجود وفى ثمرته، ويترشح فيها معنى ذلك الكائن الحى كله، فيودع فيها تاريخ حياته. فكأن نواة ذلك الكائن الحى التي هي أصله، سجل صغير لدساتير إيجاده، أما ثمراته فهى في حكم فهرس لأوامر إيجاده.

ثم ننظر إلى ظاهر ذلك الكائن الحى وباطنه، فنشاهد تدبيراً وتصريفاً للأمور لقدرة في منتهى الحكمة، و تصويراً وتنظيماً لإدارة في منتهى النفوذ. أى أن قوة وقدرة توجدان ذلك الشيء وأن أمراً وإرادة تلبسانه الصورة.

وهكذا كلما دققنا النظر في أول كل موجود وبدايته رأينا ما يدل على علم عليم، وكلما دققنا النظر في آخره شاهدنا برامج صانع، وكلما دققنا في ظاهر الشيء رأينا حلة بديعة في غاية الإتقان لفاعل مختار مريد، وكلما نظرنا إلى باطن الشيء شاهدنا جهازاً في غاية الانتظام لصانع قدير.

فهذه الأوضاع والأحوال تعلن بالضرورة والبداهة؛ انه لا يمكن أن يكون شئ ولا وقت ولا مكان خارج قبضة الصانع الجليل الواحد الأحد وخارج تدبيره وتصريفه الأمور. بل كل شئ وكل شأن من شؤونه يدبر في قبضة قدير مريد، ويجمل وينظم بلطف رحمن رحيم، ويحسن ويزين برحمة حنان منان.

نعم، أن هذا النظام والميزان والتنظيم والوزان في موجودات هذا الكون كله يدل دلالة واضحة على واحد أحد فرد قدير مريد عليم حكيم، ويرى مرتبة وحدانية عظمى لكل من كان مالكاً لشعور وبصر.

نعم .. ان في كل شئ توجد وحدة، والوحدة تدل علـــى الواحـــد. فمثلا : الشمس التي هى سراج الدنيا واحدة، بمعنى أن مالك الدنيا واحـــد. والهواء والنار والماء مثلا – وهى الخدمة لأحياء الأرض – واحدة ، بمعـــنى أن من يستخدم هذه الأشياء ويسخرها لنا واحد أيضاً " [1] .

هذا التأمل ؛ وذلك الاستدلال، هو نموذج للفكر الموصل إلى الإيمـــان التحقيقى أو اليقين. لايسع أى عاقل منصف إلا أن يسلم بهذه النتائج البديهية ولنا نحن قراء رسائل النور أمام هذا المنهج نسأل أنفسنا ونتعلم وندرب عقلنا على التعلم على وفق هذه المدرسة التأملية المنطقية ونعرض عدداً من الفروض فتح لنا بابها منهج الإمام النورسى وهى:

هل هذا الكون الذى نراه على هذه الدقة من الصنعة والنظام والاتزان يمكن ألا يكون له رصيد في الوجود ولا الحقيقة؟

وهل هذا الكون حقيقته وجدت من تلقاء نفسها بعد عدم وأن الكون هذا أوجد نفسه وكون نفسه؟

وهل هذا الكون قديم قدم المادة وليس لوجوده أول ولا آخر بل تكوّن عبر مراحل تاريخية من التحول والتغير؟

وهل هذا الكون تكون بمحض الصدفة التي لادخل فيها لصنعة صانع؟

أم أن هذا الكون كان بعد أن لم يكن وأن من ورائه خالقاً مبدعـــاً أخرجه من العدم بقدرته المطلقة وأمده بنعمة الإمداد بعد أن أفاض عليه بنعمة الإيجاد؟

وعلى منهج الأمام النورسى نقول أن هذه الفروض عرضت نفســـها بقوة يسجلها الباحث ويقف أمامها متأملاً ويتجرد في الرد عليها.

---

(١) المكتوبات ٢٩٩–٣٠٠

فالفرض الأول بالضرورة أن يكون باطلاً بطلاناً مطلقاً ومرفوضاً رفضاً باتاً عقلاً ومنطقاً إذ الواقع يثبت أننا نحس من أنفسنا أننا نفكر ونعقل ونشاهد ونتفاعل مع غيرنا. فكيف يكون هذا الكون بلا رصيد من الحقيقة والوجود!!

والفرض الثاني كذلك باطل بطلاناً مطلقاً ومرفوض عقلاً وواقعاً لأن بديهات العقل البشرى العادى تقول أن لكل حادث محدث وأن كل موجود له موجد وهو الذى أحدثه بعد عدم . والعقلاء والحكماء كلهم يجمعون بأن وجودهم له أول وآخر. وقبل أن يولدوا لم يكونوا شيئاً مذكوراً ثم كانوا ووجدوا ، إذا بالضرورة لابد من وجود موجد عظيم.

والفرض الثالث كذلك مرفوض رفضاً مطلقاً بطلاناً مطلقاً لأن المشاهد أن هذا الكون مجموعة وأجزاءه يتغير باستمرار من صورة إلى صورة. وكل متغير من صورة إلى صورة لا يمكن له صورة أصلية قديمة لأنها لو كانت كذلك لما جاز أن يطرأ أى تغيير أو تحويل.

والفرض الرابع مرفوض كذلك مطلقاً شكلاً وموضوعاً فالعلم يرفض افتراض وجود الكون مصادفة واتفاقاً ، بل إن العلم يقيم الأدلة على بطلان هذا الفرض وزيفه.

والفرض الخامس هو الحقيقة التي لا بعدها حقيقة لسقوط جميع الفروض السابقة عقلاً وعلماً، أن يكون وراء هذا الكون خالق . موجد قيوم وبقوميته أخرج هذا الوجود ، والقيومية توجب أن كل ما عدا الله حادث . وأن الموجد العظيم هو ذاته القدير المريد وألبس هذا الكون ثوب الحياة. هذا الموجد القيوم الواحد الأحد له الخلق والأمر بالضرورة.

ولا يسعنا في ختام هذا الفرع إلا أن نقول مع الإمام النورسي:

"اليقين علم ووجود وإثبات وإقرار وحكم، وأن الكفر عدم ونفي وجهل" .

القياس كطريق لتأكيد اليقين :

يقول النورسي وهو يقف متأملاً أمام قوله تعالى ﴿ **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ يقول : حينما جردني أرباب الدنيا من كل شئ، وقعت في خمسة ألوان من الغربة. ولم ألتفت إلى ما في " رسائل النور" من أنوار مسلية ممدة، جراء غفلة أورثها الضجر والضيق وانما نظرت مباشرة إلى قلبي وتحسست روحي ، فرأيت أنه يسيطر على عشق في منهى القوة للبقاء، وتهيمن عليّ محبة شديدة للوجود، في شوق عظيم للحياة .. مع ما يمكن فيّ من عجز لا حد له، وفقر لانهاية له. غير أن فناءً مهولاً مدهشاً، يطفئ ذلك البقاء ويزيله ، فقلت مثلما قال الشاعر المحترق الفؤاد:

حكمة الإله تقضى فناء الجسد والقلب تواق إلى الأبد

لهف نفسي من بلاء وكمد حار لقمان في إيجاد الضمد

فطأطأت رأسي يائساً .. وإذا بالآية الكريمة : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ تغيثني قائلة: أقرأني جيداً بتدبر وإمعان، فقرأتها بدوري خمسمائة مرة في كل يوم فكلما كنت أتلوها كانت تكشف عن بعض من أنوارها وفيوضاتها الغزيرة، فرأيت منها بعين اليقين – وليس بعلم اليقين – تسع مراتب حسبية : [1]

المرتبة الحسبية الأولى:

ان ما فيّ عشق البقاء، ليس متوجهاً إلى بقاء أنا، بل إلى وجود ذلك الكامل المطلق والى كماله وبقائه. وذلك لوجود ظل لتجل من تجليات اسم من أسماء الجليل والجميل المطلق ذى الكمال المطلق، وهو المحبوب لذاته – أى دون داع إلى سبب – في ماهيتي الا أن هذه المحبة الفطرية ضلت سبيلها وتاهت بسبب الغفلة، فتشبثت بالظل وعشقت بقاء المرآة.

---

(١) سنذكر بعضاً منها

ولكن ما إن جاءت ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ حتى رفعت الستار فأحسست وشاهدت ، وتذوقت بحق اليقين:

إن لذة البقاء وسعادته، موجودة بنفسها، بل أفضل وأكمل منها في إيماني وإذعاني وإيقاني ببقاء الباقي ذى الكمال ، وبأنه ربي وإلهي .

المرتبة النورية الحسبية الثانية :

انه مع عجزي غير المتناهي الكامن في فطرتي، ومع الشيخوخة المستقرة في كياني ومع تلك الغربة التي لفتني، ومع عدم وجود المعين لي، وقد جردت من كل شئ ويهاجمني أهل الدنيا بدسائسهم وبجواسيسهم.. في هذا الوقت بالذات خاطبت قلبي قائلاً:

" إن جيوشاً كثيفة عارمة تهاجم شخصاً واحداً ضعيفاً مريضاً مكبل اليدين. أو ليس له – أي لي – من نقطة استناد؟".

فخاطبتني الآية الكريمة :

انك تنتسب بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة بحيث يجهز بانتظام تام في الربيع جميع ما تحتاجه جيوش النباتات والحيوانات المنتشرة على سطح الأرض . من معدات، فيزود جميع تلك الجيوش المتشكلة في أربعمائة ألف نوع من الأمم المختلفة، ويوزع جميع أرزاق ذلك الجيش الهائل للأحياء – وفي مقدمتها الإنسان – لا بشكل ما اكتشفه الإنسان في الآونة الأخيرة بل تفوقها مائة مرة فهي مستخلصات اللحم والسكر وغيرهما، بل بصورة مستخلصات أكمل وأفضل بكثير من مستخلصات رحمانية.. تلك التي تسمى البذور والنوى.. زد على ذلك فانه يغلف أيضاً تلك المستخلصات باغلفة قدرية تناسب مع نضجها وانبساطها ونموها، ويحفظها في عليبات وصنيدقات صغيرة وصغيرة جداً ، وهذه الصنيدقات أيضاً تصنع بسرعة متناهية جيداً، وبسهولة مطلقة للغاية، وبوفرة هائلة، وذلك في معمل

"ك. ن" الموجود في أمر " كن" حتى أن القرآن الكريم يقول : ﴿ فإنما يقول له كن فيكون! ﴾ .

فما دمت قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه بهوية الانتساب الايمانى ، فيمكنك الاستناد والاطمئنان إذا إلى قوة عظيمة وقدرة مطلقة . وحقاً لقد كنت أحس بقوة معنوية كلما كنت أتلقى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة، فكنت أشعر أننى أملك قوة يمكننى أن أتحدى بها جميع أعدائى في العالم وليس الماثلين أمامى وحدهم، لذا رددت من أعماق روحى : ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ .

المرتبة النورية الحسبية الثالثة :

حينما اشتد خناق الأمراض وألوان الغربة وأنواع الظلم علىّ، وجدت أن علاقاتى تنفصم مع الدنيا، وأن الإيمان يرشدنى بأنك مرشح لدنيا أخرى أبدية، وأنك مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة، ففى هذه الأثناء تركت كل شئ تقطر منه الحسرة ويجعلنى أتأوه وأتأفف، وأبدلته بكل ما يبشر بالخير والفرح ويجعلنى في حمد دائم. ولكن أنّى لهذه الغاية أن تتحقق وهى غاية المنى ومبتغى الخيال وهدف الروح ونتيجة الفطرة، الاّ بقدرة القدير المطلق الذى يعرف جميع حركات المخلوقات وسكناتهم قولاً وفعلاً، بل يعرف جميع أحوالهم وأعمالهم ويسجلها كذلك. وأنّى لها أن تحصل الاّ بعنايته الفائقة غير المحدودة لهذا الإنسان الصغير الهزيل المتقلب في العجز المطلق حتى كرّمه ، واتخذه خليلاً مخاطباً ، واهباً له المقام السامى بين مخلوقاته.

نعم، حينما كنت أفكر في هاتين النقطتين، أى : في فعالية هذه القدرة المحدودة، وفى الأهمية الحقيقية التى أولاها البارئ سبحانه لهذا الإنسان الذى يبدو حقيراً. أردت أيضاحاً في هاتين النقطتين ينكشف به الإيمان ويطمئن به القلب فراجعت بدورى تلك الآية، فقالت لى: دقق النظر في "نا" التى في " حسبنا" وانظر من هم أولاء ينطقون " حسبنا" معك ، سواء ينطقونها بلسان

الحال أو بلسان المقال، أنصت اليهم .. نعم هكذا أمرتني الآية . فنظـرت .. فإذا بي أرى طيوراً محلّقة لاتحدّ ، وطويرات صغيرة صغيرة جداً كالذبـاب لا تحصى، وحيوانات لا تعد ونباتات لا تنتهى وأشجاراً لا آخر لها ولا نهاية...

كل ذلك يردد مثلى بلسان الحال معنى ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾، بل يذكّر الآخرين بها .. أن لهم وكيلاً – نعم الوكيل – تكفل بجميع شـرائط حياتهم، حتى انه يخلق من البيوض المتشابهة بعضها مع بعض وهى المتركبة من المواد نفسها، ويخلق من النطف التى هى مثل بعضها البعض ويخلق من الحبوب التى هى البعض عينه ويخلق من البذور المتماثلة بعضها مع البعض الآخر مائـة ألف طراز من الحيوانات ومائة ألف شكل من الطيور ومائـة ألـف مـن النباتات، ومائة ألف صنف من الأشجار، يخلقها بلا خطأ وبلا نقص وبـلا التباس، يخلقها مزينة جميلة وموزونة منظمة، مع تميز بعضها عن البعض الآخر واختلاف بعضها عن بعض، يجعلها باستمرار ولا سيما ايام كل ربيع أمـام أعيننا في منتهى الكثرة، وفى منتهى السهولة، وفى السعة، وفى منتهى الوفرة .. فخلق جميع هذه المخلوقات متشابهاً ومتداخلاً ومجتمعة على النمـط نفسـه والأشكال عينها، ضمن عظمة هذه القدرة المطلقة وحشمتها ، يظـهر لنـا بوضوح: وحدانية الله سبحانه وتعالى وأحديته.

وقد أفهمتنى الآية أنه لايمكن التدخل مطلقاً ولا المداخلة قطعاً في مثـل هذا الفعل للربوبية المطلقة وفى تصرف الخلاقية، اللتين تبرزان هذه المعجـزات غير المحدودة وتنشرانها...

المرتبة النورية الحسبية الرابعة :

وافقت العوارض المزلزلة لكيانى أمثال الشيب والغربة والمرض وكـونى مغلوباً على أمرى، وافقت تلك العوارض فترة غفلتى، فكأن وجودى الـذى أتعلق به بشدة يذهب إلى العدم، بل وجود المخلوقات كلها تفنى وتنتـهى إلى الزوال، فولد عندى ذهاب الجميع إلى العدم قلقاً شديداً واضطرابـاً أليمـاً

فراجعت الآية الكريمة أيضاً ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فقالت لى : " تدبر في معناى ، وأنظر اليها بمنظار الإيمان " وأنا بدورى نظرت إلى معانيها بعين الإيمان فرأيت:

إن وجودى الذى هو ذرة صغيرة جداً – كوجود كل مؤمن مرآة لوجود غير محدود، ووسيلة للظفر بأنواع من وجود غير محدود بانبساط غير متناه .. وهو بمثابة كلمة حكيمة تثمر من أنواع الوجود الكثيرة الباقية ما هو أكثر قيمة من وجودى حتى أن لحظة عيش له من حيث انتسابه الإيمانى ثمين جداً ، وله قيمة عالية كقيمة وجود أبدى دائم ، فعلمت كل ذلك بعلم اليقين؛ لأن معرفتى بالشعور الإيمانى بأن وجودى هذا أثر من آثار واجب الوجود وصنعة من صنعته وجلوة من جلواته جعلتنى أنجو من ظلمات لاحد لها تورثها أوهام موحشة، أتخلص من آلام لاحد لها نابعة من افترا قات وفرا قات غير متناهية، ودفعتنى، لأمدّ روابط أخوة وثيقة إلى جميع الموجودات ولاسيما إلى ذوى الحياة روابط بعدد الأفعال والأسماء الإلهية المتعلقة بالموجودات . وعلمت أن هناك وصالاً دائماً بهذه الروابط مع جميع ما أحبه من الموجودات من خلال فراق مؤقت.

وهكذا فان وجودى كوجود كل مؤمن، قد ظفر بالإيمان والانتساب الذى فيه بأنوار أنواع وجود غير محدود فافتراق فيها . فحتى لو ذهب وجودى فان بقاء تلك الأنواع من الوجود من بعده يطمئن وجودى وكأنه قد بقى بنفسه كاملاً.

والخلاصة : أن الموت ليس فراقاً بل هو وصال وتبديل مكان وإثمار لثمرة باقية..

المرتبة النورية الحسبية الخامسة :

لقد تصدّعت حياتى حيناً تحت أعباء ثقيلة جداً ، حتى لفتت نظرى إلى العمر والى الحياة فرأيت أن عمرى يجرى حثيثاً إلى الأخرة.. وان حياتى المتقربة إلى الآخرة قد توجهت نحو الانطفاء تحت المضايقات العديدة ، ولكن

الوظائف المهمة للحياة ومزياها الراقية وفوائدها الثمينة لاتليق بهذا الانطفاء، بل تليق بحياة طويلة مديدة، ففكرت في هذا بكل ألم وأسى، وراجعت أستاذى الآية الكريمة ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فقالت لى : أنظر إلى الحياة من حيث " الحى القيوم " الذى وهب لك الحياة. فنظرت اليها بهذا المنظار وشاهدت أنه ان كان للحياة وجه واحد متوجه إلى أنا فان لها مائة وجه متوجه إلى " الحى المحيى" وان كانت لها نتيجة واحدة تعود إلى أنا، فلن لها ألفا من النتائج تعود إلى خالقى؛ لذا فان لحظة واحدة من الحياة، أو آناً من الوقت ضمن هذه الجهة كاف جداً ، فلا حاجة إلى زمان طويل.

المرتبة النورية الحسبية السادسة :

من خلال الشيب الذى يذكّر بفراقى الخاص ، ومن خلال حوادث آخر الزمان التى تنبئ عن دمار الدنيا ضمن الفراقات العامة الشاملة، ومن خلال الانكشاف الواسع فوق العادة في أواخر عمرى لأحاسيس الجمال والعشق له والافتتان بالكمالات المغروزة في فطرتى. من خلال كل هذا رأيت أن الزوال والفناء اللذين يدمران دائماً وان الموت والعدم اللذين يفرقان باستمرار ، رأيتهما يفسدان بشكل مرعب ومخيف، جمال هذه الدنيا الرائعة الجمال ويشوهانه بتحطيمهما لها، ويتلفان لطافة هذه المخلوقات .. فتألمت من أعماقى بالغ التألم لما رأيت. ففار ما فى فطرتى من عشق مجازى فوراناً شديداً يتأجج بالرفض والعصيان أمام هذه الحالة المفجعة ، فلم يك لى منها بد الا مراجعة الآية الكريمة لأجد المتنفس والسلوان ، فقالت: " اقرأنى جيداً ، أنعم النظر في معانىّ " وأنا بدورى دخلت إلى مركز الارصاد لسورة النور لآية ﴿ الله نور السموات والأرض ... ﴾ . فنظرت من هناك "بمنظار" الإيمان إلى أبعد طبقات الآية الحسبية، وفى الوقت نفسه نظرت " بمجهر" الشعور الإيمانى إلى أدق أسرارها .. فرأيت انه مثلما تظهر المرايا والزجاج والمواد الشفافة وحتى حباب البحر الجمال المخفى المتنوع لضوء الشمس، فيظهر كل منها مختلف الجمال للألوان السبعة لذلك الضوء ومثلما يتجدد ذلك الجمال وذلك الحسن بتجدد تلك المواد وبتحركها وحسب قابليتها

ووفق انكساراتها المتنوعة، أى مثلما أنها تظهر الجمـــال المخفـــى للشـــمس ولضوئها ولألوانها السبعة – بشكل جميل جذاب – فكذلك الأمر في هـــذه المصنوعات وهذه المخلوقات اللطيفة والموجودات الجميلة التى تقوم مقام مرايا عاكسة لذلك الجمال المقدس للجميل ذى الجمال الذى هـــو " نـــور الأزل والأبد" فهذه المخلوقات لاتلبث أن تذهب دون توقف مجددة بذلك تجليـــات أسمائه الحسنى جل وعلا . فالجمال الظاهر في هذه المخلوقات والحسن البـــارز فيها اذن ليس هو ملك ذاتها ، وانما هو اشارات إلى ذلك الجمـــال المقـــدس السرمدى الذى يريد الظهور، وعلامات واشارات وتجليات لذلك الحســـن المجرد المنزه المتجلى دائماً والذى يريد المشاهدة والاشهاد ....[1] .

القياس التمثيلى المتسلسل كطريق لليقين:

سلك النورسى مسلك الإمام أبى حامد الغزالى في أنه يأتى إلى المعـــنى الغامض فيجلوه ويقربه لمن خفى عليه إنقاذاً للعقل مـــن ضلالـــة تغشـــاه. فتحجب عنه الحقيقة وتبعد العقل من أن يتخبط خبط عشواء. وكان القياس التمثيلى أصدق دليل على ذلك لأنه كما يقول العقاد في كتابـــه التفكـــير فريضة إسلامية : بحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم والمتميز الصحيح وجمع القواعد التى يستعان بها، على تصحيح النظر والتمييز، وحكم الإســـلام فيه. والقرآن الكريم صريح في مطالبة الإنسان بالنظر والتمييز ومحاسبته علـــى تعطل عقلة وضلال تفكيره.

يقول النورسى :

١ – قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ [آل عمران: ٣١] تعلن هذه الآية العظيمة إعلاناً قاطعاً مدى أهمية اتبـــاع الســـنة النبوية ومدى ضرورتها.

نعم! إن هذه الآية الكريمة أقوى قياس وأثبتـــه مـــن قيـــم القيـــاس الاستثنائى، ضمن المقاييس المنطقية، إذ يرد فيه على وجه المثال: " إذا طلعـــت الشمس فسيكون النهار".

(١) اللمعات ٣٨٧- ٣٩٣

ويرد مثلاً للنتيجة الإيجابية : " طلعت الشمس فالنهار موجود" . ويرد مثالاً للنتيجة السلبية: " ولا نهار إذا لم تطلع " فهاتان النتيجتان – الإيجابية والسلبية – ثابتتان وقاطعتان في المنطق.

وكذلك الأمر في هذه الآية الكريمة، فتقول : ان كان لديكم محبة الله، فلابد من الاتباع لـ " حبيب الله". وإن لم يكن هناك اتباع، فليس لديكم محبة الله. إذ لو كانت هناك محبة حقاً فانما تولد حتماً اتباع السنة الشريفة لـ " حبيب الله".

أجل ! ان من يؤمن بالله يطعه ولا ريب ان أقصر طريق إليه وأكثرها قبولاً لديه، وأزيدها استقامة – ضمن طرق الطاعة المؤدية إليه – لهى الطريق التى سلكها وبينها حبيب الله ﷺ .

إن محبة الله تستلزم اتباع السنة المطهرة وتنتجه.

فطوبى لمن كان حظه وافراً من ذلك الاتباع.

وويل لمن لا يقدر السنة الشريفة حق قدرها فيخوض في البدع[1].

٢ — في تأمله وقياسه التمثيلى يقف النورسى أمام قوله تعالى (آلم) فيقول:

إن ﴿ آلـم﴾ إشارة إلى نهاية الإيجاز، الذى هو ثانى أساسى الإعجاز.

منها: أن ﴿ آلـم﴾ يرمز ويشير ويومئ ويلوح بالقياس التمثيلى المتسلسل إلى : أن هذا كلام الله الأزلى نزل به جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام" لأنه كما أن الأحكام المفصلة في مجموع القرآن قد ترتسم

---

(١) اللمعات ص ٨٤.

الصلاة والسلام" لأنه كما أن الأحكام المفصلة في مجموع القرآن قد ترتسم في سورة طويلة إجمالاً؛ وقد تتمثل سورة طويلة في إشارة قصيرة ؛ وقد تندمج آية في كلام واحد تلويحاً ؛ وقد يتداخل كلام في كلمة تلميحياً، وقد تتراءى تلك الكلمة الجامعة في حروف مقطعة، كـ " الف لام ميم" ؟؟ كالقرآن في البقرة والبقرة في الفاتحة، والفاتحة في " بسم الله الرحمن الرحيم" و " بسم الله الرحمن الرحيم " في البسملة المنحوتة [1]كذلك يجوز في ﴿آلـم﴾ أيضاً

فبالاستناد إلى هذا القياس التمثيلي المتسلسل، وبإشارة ﴿ **ذلك الكتاب**﴾ يتجلى من ﴿ آلـم﴾ : " هذا كلام الله الأزلي نزل به جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام".

ومنها : أن الحروف المقطعة كالشفرة الإلهية أبرقها إلى رسوله عنده مفاتحها و لم يتطاول يد فكر البشر إليه بعد.

ومنها : أن ﴿ آلـم﴾ إشارة إلى شدة ذكاوة المنزل عليه رمزاً إلى أن الرمز له كالتصريح.

ومنها: ان التقطيع اشارة إلى أن قيمة الحروف ليست في معانيها فقط بل بينهما مناسبات فطرية كمناسبة الاعداد ،كشفها علم أسرار الحروف.

ومنها : أن ﴿ آلم ﴾ خاصة ، اشارة بالتقطيع إلى المخارج الثلاثة من الحلق والوسط والشفة، وترمز تلك الإشارة إلى اجبار الذهن للدقة، وشق حجاب الألفة، ليلجأ إلى مطالعة عجائب ألوان نقش خلقة الحروف [2].

٣ — يقول النورسي في تفسير قوله تعالى ﴿ **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**﴾.

---

(١) اللمعات ص ٨٤

(٢) إشارا ت الإعجاز: ٤٣.

الواو بسر الربط تلوح إلى أن يد القدرة تتصرف تحت حجاب الأسباب وأن نظر الحكمة يراقب من فوق جميع العلل.

وأما ﴿ لـو ﴾ فمتضمنة لقياس استثنائي غير مستقيم. أي عدم المشيئة علة لعدم ذهابهما؛ كما أن عدم الذهاب دليل على العلم بعدم المشيئة بذهابهما . وأيضاً رمز إلى أن السبب بلغ النهاية.

وأما ﴿ شاء ﴾ فإشارة إلى أن الربط بين السبب والمسبّب إنما هي المشيئة والإرادة الإلهية. فالتأثير للقدرة ، وما الأسباب إلا حجاب العزة والعظمة لئلا تباشر يد القدرة بالأمور الخسيسة في ظاهر نظر العقل.

وأما التصريح بلفظة ﴿ الله ﴾ فاشارة إلى زجر الناس عن الإبتلاء بالأسباب والانغماس فيها.وأيضاً لدعوة الأذهان إلى رؤية يد القدرة خلف كل الأسباب.. وأما حذف مفعول " شاء" وان كان واجباً بالقاعدة المطردة فيجوز بقرينة اخواته ان يكون ايماء إلى عدم تأثير المشيئة والارادة الإلهية بأحوال الكائنات وعدم تأثر الأشياء في الصفات الإلهية كما تتأثر ارادة البشر بحسن الأشياء وقبحها وعظمتها وصغرها .

وأما ﴿ لذهب ﴾ فاشارة إلى أن الاسباب ليست مسلطة ومستولية على المسببات حتى إذا رفعت بقيت المسببات في جوف العدم يلعب بها يد التصادف وتشتتها بالاتفاق، بل يد القدرة حاضرة خلف الأسباب. اذا أخرجت الأشياء تأخذها يد الحكمة الإلهية بقانون الموازنة والانتظام، ترسلها إلى مواقع أخر ولا تهملها. كما أن الحرارة اذا خربّت بنية الماء، فبالنظام المندمج في الهواء يذهب البخار في مجرى معين ويسوقه صانعه إلى موقع معين.. وكذا في " ذهب" رمز إلى أن الحواس الخمس الظاهرة ليست متولدة عن الطبيعة ولا لازمة لتجاويف السمع والبصر، بل انما هى هداياه تعالى وعطاياه ، وما التجاويف والأسباب إلا شرائط عادية.

وأما التعدية بالباء بدل الهمزة فايماء إلى أن يد القدرة لا تطلق الأشـياء عن حبل الأسباب ، غاربها على عنقها[1]، بل تضع أزمتها بيد نظام.

وأما أفراد " السمع" مع جمع " البصر" فاشارة إلى إفـراد المسـموع وتعدد المبصر، اذ ألف رجل يسمعون شيئاً واحداً مع تخالف المبصرات.

وأما هيئات جملة ﴿ إن الله على كل شئ قدير﴾ فاعلم ! انما فذلكـة لتحقيق الدهشة في التمثيل والممثل له تشير إلى انه لاتهمل دقـائق أحـوال المصابين المتمثلة لجزئيات أحوال المنافقين؛ كذلك يُرى في كل ذرة تصـرف القدرة الإلهية.

واما ﴿ إن﴾ فمع اشارتها إلى ان هذا الحكم من الحقائق الراسخة، رمز إلى عظمة المسألة ووسعتها ودقتها، وعجز البشر وضعفه وقصوره عنها المولدة للأوهام المنتجة للتردد في اليقينيات.

وأما التصريح بلفظة ﴿ الله ﴾ فايماء إلى دليل الحكم، اذ القدرة التامـة الشاملة لازمة للألوهية.

وأما ﴿ على﴾ فايماء إلى أن القدرة المخرجة للأشياء مـن العـدم لا تتركها سدى هملاً، بل ترقب عليها الحكمة وتربيها.

وأما ﴿كل﴾ فإشارة إلى أن آثار الأسباب، والحاصل بـالمصدر مـن الأفعال الاختيارية أيضاً بقدرته تعالى.

وأما لفظ ﴿ شيء﴾ بمعنى مشئ أى ما تعلقت به المشيئة، فاشارة إلى أن الموجودات بعد وجودها لا تستغنى عن الصانع بل تفتقر في كل آن لبقائها — الذى هو تكرر — إلى تأثير الصانع .

---

(١) أل المثل: حبلك على غاربك. والغارب : أعلى السنام. وهذا كناية عن الطلاق ، أى اذهبى حيث شئت (مجمع الأمثال)

وأما لفظ ﴿ قدير﴾ بدل " قادر " فرمز إلى أن القدرة ليست على مقدار المقدورات فقط، وانما ذاتية لاتغير فيها، ولازمة لاتقبل الزيادة والنقصان لعدم إمكان تخلل ضدها حتى تترتب شدة ونقصاناً .. وتلويح إلى أن القدرة كالجنس وكميزان الصرف، أعني (فعل) لجميع الأوصاف الفعلية من الرزاق والغفار والمحيى والمميت وغيرها. تفكر فيما سمعت حق التفكيرا[1]

الاستقراء التام

١ – في تفسير النورسى وتأملاته واستقرائه لتأكيد اليقين يقول وهو أمام قوله تعالى ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين؟.؟ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾ .

يقول النورسى:

تثبت هذه الآية ثاني المقاصد الأربعة وهو إثبات نبوة محمد ﷺ بأكمل معجزاته الذى هو التحدى بإعجاز القرآن الكريم وتلخصها في ست مسائل (نذكر واحدة منها) :

المسألة الأولى

أعلم ان الاستقراء التام في أحوال الأنبياء مع الانتظام المطرد المسمى بالقياس الخفى ينتج ان مدار نبوة الأنبياء وأساسها وكيفية معاملاتهم مع أممهم — بشرط تجريد المسألة عن خصوصيات تأثير الزمان والمكان— يوجد بأكمل وجه في محمد عليه الصلاة والسلام الذى هو استاذ البشر في سن كمال البشر، فينتج بالطريق الأولى وبالقياس الأولوى انه أيضاً رسول الله. فجميع الأنبياء بألسنة معجزاتهم كأنهم شاهدون على صدق محمد عليه السلام الذى هو البرهان النير على وجود الصانع ووحدته فتأمل..

---

(١) اشارات الإعجاز ١٤٥-١٤٦

٢ — إثبات وجود الملائكة عن طريق القياس..

وعن طريق القياس بطريق الأولى بالتساند مع دليل التواتر سلك الإمام النورسى طريق إثبات وجود الملائكة عقلاً ومنطقاً ووقف أمام قوله تعـالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إنى أعلـم مالا تعلمون﴾** .

يقول النورسى :

أعلم أن التصديق بوجود الملائكة أحد أركان الإيمان الأربعة . ولنا هنا مقامات:

المقام الأول

ان من نظر إلى الأرض وقد امتلئت بذوى الأرواح مـع حقارتها ، وتأمل في انتظام العام واتقانه، تحدس بوجود سكان في هذه البروج العاليـة . فمثل من لم يصدق بوجود الملائكة كمثل رجل ذهب إلى بلـدة عظيمـة وصادف داراً صغيرة عتيقة ملوثة بالمزخرفات مشـحونة بالنـاس . ورأى عرصاتها مملوءة من ذوى الأرواح ولحياتهم شـرائط مخصوصـة كالنباتـات والأسماك . ثم رأى الوفا من القصور العالية الجديدة قد تخللت بينها ميـادين النزهة فيعتقد خلوها عن السكان بعدم جريان شرائط حياة هذه الدار في تلك القصور . ومثل المعتقد بوجودهم كمثل من رأى هذا البيت الصغير وقد امتلأ من ذوى الأرواح ورأى انتظام البلدة، جزم بأن لتلك القصور المزينة أيضـاً سكاناً يناسبونها وتوافقهم ولهم شرائط حياة مخصوصة فعدم مشـاهدتهم — لبعدهم وترفعهم — لايدل على عدمهم . فامتلاء الأرض من ذوى الحياة ينتج بالطريق الأولى وبالقياس الأولوى المؤسس على القياس الخفى المبـنى علـى الانتظام المطرد — امتلاء هذه الفضاء الواسعة ببروجها ونجومها وسماواتها مـن

ذوى الأرواح الذى يدعوهم الشرع بالملائكة المنطوية على أجناس مختلفة فتأمل!..

المقام الثاني

اعلم – كما مر – أن الحياة هى الكشافة للموجودات بل هى النتيجة لها، فإذا كيف تخلو هذه الفضاء الواسعة من ساكنيها وتلك السماوات من عامريها. ولقد أجمع العقلاء اجماعاً معنوياً – وان اختلفوا في طريق التعبير – على وجود معنى الملائكة وحقيقتهم، حتى أن المشائين عبروا عنهم بالماهيات المجردة الروحانية للأنواع، والاشراقيين عبروا عنها بالعقول وأرباب الأنواع، وأهل الأديان بملك الجبال وملك البحار وملك الأمطار مثلاً . حتى المادين الذين عقولهم في عيونهم لم يتيسر لهم انكار معنى الملائكة بل نظروا اليهم في القوات السارية في نواميس الفطرة.

فإن قلت:أفلا يكفى لارتباط الكائنات وحيويتها هذه النواميس وتلك القوانين الجارية في الخلقة؟

قيل لك : ماتلك النواميس الجارية والقوانين السارية الا أمور اعتبارية بل وهمية لا يتعين لها وجود ولا يتشخص لها هوية الا بممثلاتها ومعاكسها ومن هو آخذ برأس خيوطها وان هى إلا الملائكة .. وأيضاً قد اتفق الحكماء والعقل والنقل على عدم انحصار الوجود في عالم الشهادة الظاهر الجامد الغير موافق لتشكل الأرواح فعالم الغيب المشتمل على عوالم موافقة للارواح – كالماء للأسماك – مشحون بها [1]، مظهر لحياة عالم الشهادة.. فاذا شهدت لك هذه الأمور الأربعة على وجود معنى الملائكة فأحسن صور وجودهم التى ترضى بها العقول السليمة ما هو إلا ما شرحه الشرع من أنهم عباد مكرمون لا يخالفون مايؤمرون وكذا انهم أجسام لطيفة نورانية ينقسمون إلى أنواع مختلفة.

---

(١) أى بالملائكة

المقام الثالث:

أعلم أن مسألة الملائكة من المسائل التي يتحقق الكل بثبوت جزء واحد، ويعلم النوع برؤية أحد الأشخاص، اذ من أنكر أنكر الكل . ثم كما انه محال عندك — أيقظك الله – أن يجمع أهل كل الأديان في كل الأعصار من آدم إلى الآن على وجود الملائكة وثبوت المحاورة معهم وثبوت مشاهدتهم والرواية عنهم كمباحثة الناس طائفة عن طائفة، بدون رؤية فرد بل أفراد منهم وبدون ضرورة وجود شخص بل أشخاص منهم، بدون الإحساس بالضرورة بوجودهم؛ كذلك محال أن يقوم وهم كذلك في عقائد البشر ويستمر هكذا ويبقى في الانقلابات بدون حقيقة يتسنبل عليها وبدون مبادئ ضرورية مولدة لذلك الاعتقاد العمومي. فإذاً ليس سند هذا الاجماع الا حدس تولد من تفاريق امارات حصلت من واقعات مشاهدات نشأت من مبادئ ضروية. وليس سبب هذا الاعتقاد العمومي الا مبادئ ضروية تولدت من رؤيتهم ومشاهدتهم في كرات تفيد قوة التواتر المعنوى. والا رفع الأمن من يقينيات معلومات البشر. فإذا تحقق وجود واحد من الروحانية في زمان ماتحقق وجود هذا النوع. وإذا تحقق هذا النوع، كان كما ذكره الشرع وبينه القرآن الكريم[1] .

مما سبق عرضه فى بيان اثبات النورسى لوجود الملائكة يبين أنه لجأ إلى طريق القياس بطريق الأولى: وعضده بدليل آخر وهو دليل التواتر. والتواتر عند النورسى دليل حازم إذ يقول عنه:

" إن شهادة مالا يحصى من أهل الاختصاص والإثبات بدرجة التواتر والإجماع وهو يقين حازم في ضوء أخبار أهل الذوق والكشف" [2]

---

(١) اشارات الإعجاز: ٢٣١ – ٢٣٣

(٢) الكلمات / الكلمة الثالثة ، ص ١٤ .

الأسباب والمسببات كطريق إلى اليقين:

النورسى ونظرية الأسباب والمسببات

كان النورسى لايؤمن بالمعرفة الجزئية. ويعدها من نواقص العقل البشرى، فمهما أوتى العالم المسلم علماً من العلوم أو معرفة محددة من المعارف أو غاص في سر من أسرار النفس أو هضم حقيقة من حقائق الوجود فإنه لن يستطيع الوصول إلى المعرفة الشمولية والقانون الرابط للقوانين، وحينئذ يفقد الموازنة والاتساق. ومن هنا يبين أن فهم القرآن الكريم بمجموعه وبمقدمات أولية ونتائجها وبمعارفه جميعها وباطلاع على حقائق في عالم الأنفس والآفاق هو الذى يرسم الموازنة الكاملة في فكر العالم المسلم والعارف المسلم.

وحقاً فإن النورسى كما يقول في المثنوى العربي النورى : " صارت مسائل هذه الرسائل من هذه الجهة كأنها مبرهنة استدلالية.فيمكن لمن ضل من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها ما ينجيه من مزالق الأفكار الفلسفية . بل يمكن أن يستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والعقائد والإيضاح عقائد إيمانية وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة، لرد ضلالات أفكار هذا الزمان "(1) .

وفى محاولة إنقاذ الإيمان في رسائل النور يحيط النورسى بإحاطة واسعة بوساوس النفس وخطرات العقل والشكوى الكلية والجزئية التى أتت من اقتحام فلسفات الحضارة الغربية فلفت الكيان الإسلامى كله . وكما أن هذه الحضارة قد دخلت إلى العقول والنفوس فأفسدتها بظواهر الحجج والدلائل، الفاسدة في حقيقتها . يريد النورسى أن يدخل إليها من باب المناقشة الهادئة والإستدلال الحاسم والمنطق الصحيح من خلال ثمرات العلم والعقل واستقراء ما في الكون من قوانين واتساق ونظام. (2)

---

(1) المثنوى العربي النورى ص ٢٠٦

(2) د. محسن عبد الحميد – المرجع السابق ص ٨٤.

ورسائل النور كلها تحمل هذا المنهج القرآنى الكونى الشامل الذى يظهر نور التوحيد من أوسع ميادين العلوم الحديثة.

الخلاصة: إن منهج النورسى كما سبق في البرهنة على الإيمان التحقيقى يتخذ من العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وقوانينها أدلة لإثبات حقيقة الإيمان ويبرهن بها أصول العقائد ، وسنرى موقف النورسى من الأسباب والمسببات كطريق للمعرفة وكيف دخل منها واتخذ من نتائج العلم الحديث أدلة على إثبات موضوعات أصول العقيدة.

الأسباب والمسببات:

الأسباب والمسببات طريق من طرق المعرفة في الإسلام. وهو طريق لفريق من البشر. لأن كثيراً من الناس لايقنع إلا بأفاعيل الأسباب في مسبباتها ولا يرضيه سوى التأمل في نشوء المسببات عن أسبابها. وهذا الطريق يصل مابين العقل والإرادة والوجدان. ويضع الخطوط المثالية للسلوك وهذا الطريق أيضاً يمكن للأسباب والمسببات من الصعود إلى ماوراء الطبيعة ليصل إلى معرفة الخالق وعظمته وعدله وحسابه وجزاءه وكيفية استعمال هذا الطريق كما هو مستقر في الفكر الإسلامى أن المستدل ينظر أولاً إلى ماحوله من المرئيات. ثم يحاول أن يتبين أسبابها المؤثرة فيها بلا أية واسطة. فإذا تبينها أسرع إلى الاستقصاء عن سببيتها. واعتبرت مسببات لما قبلها ثم بادر إلى البحث عن التى قبلها، فاذا اهتدى اليها سلك بازائها نفس مسلكه بازاء ما سلف حتى ينتهى إلى الحق الذى هو الغاية المنشودة والنهاية المقصودة.

وهذا شئ من آيات السببية الدالة على وجود المبدع أو الدالة على البعث.

قال تعالى **﴿ ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب حصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾** [ق – ١١].

وقال تعالى .. ﴿ ومن آياته أنـك تـرى الأرض خاشـعة فإذا أنزلنـا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحـى الموتى إنـه علـى كـل شـئ قدير﴾ [فصلت — ٣٩].

ومن هذا الطريق طريق الأسباب والمسببات وصل المفكرون إلى أسرار الكون وخفايا الوجود ومعرفة خـالق الكـون. ويـورد الفلاسـفة والمتكلمـون الأدلة التى تشهد لهذا الطريق . وتقوم على أساسه نوجزها فيما يأتى:

أولاً : مسالك المتكلمين:

وهو طريق الإمكان وامتناع التسلسل إلى مالا نهاية في جانب الماضى وفى هذا يقول ابن سينا أن هنا موجـودات فهـذا الوجـود إذا نظرنـا إليـه في العقل بقطع النظر عن تحققه في الخارج فلا يخلو إما أن يكون وجوده من ذاته فيكون واجب الوجود أو من غيره فلا يكون واجباً بالضرورة. وهو مع ذلك غير ممتنع لأن الممتنع لا يوجد ، أى ممكن بمعنى أن وجوده وعدمه سيان. وما استوى طرفاه لا يخرج إلى الوجود إلا بمرجـح، وهـذا المرجـح إمـا أن يكـون وجوده من ذاته فيكون واجب الوجـود أو مـن غـيره فيكـون ممكـن الوجـود وحينئذ يعود الكلام فإما أن ننتهى إلى مرجـح واجـب الوجـود أو يتسلسـل الأمر إلى غير نهاية أو يدور والدور والتسلسل بـاطلان فلـم يبـق إلا الانتهـاء إلى مرجح واجب الوجود هو الله تعالى.

ثانياً : وثانى الأدلة عند المتكلمين أن العلم بجميع أجزائه من جواهر وأعراض حادث. وكل حادث لابد له من محدث . إذاً العالم لابد لـه مـن محـدث هـو الله تعالى. وهذا الدليل في قوة قضيتين: القضيـة الأولى. كـل جوهـر حـادث والقضية الثانية كـل عـرض حـادث . ثـم يتكلـم الفلاسـفة والمتكلمـون عـن حـدوث الجواهـر وحـدوث الإعـراض لإثبـات أن كـل جوهـر لا يخلـو عـن الحوادث وكل مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث وينتهون إلى أن كل جوهر حادث. وكذلك الأعراض التى هى حادثة بالمشاهدة لأنه لامعنـى للحـدوث إلا الوجود بعدم العدم.

ثالثاً : دليل الحكماء والمتكلمين

وهذا الدليل يقوم على امتناع وجود الممكن أو الحادث بلا موجد وعلي استحالة الدور والتسلسل.

رابعا: ورابع الأدلة التي تشهد لطريق الأسباب والمسببات ما جاء عن الجاحظ. ومن رجال المعتزلة. يقول : إن قوماً أنكروا الأسباب والمعاني وقصروا عن تأمل الصواب والحكمة في الخلقة وأنكروا خلق الأشياء وزعموا أن كونها بإهمال لاصنعة فيه ولا تقدير فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أحسن بناء وفرشت أتقن فرش ولما كانوا لايرون شيئاً أنكروا جمالها وإنسجامها. وأول العبر والآيات بهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه. ونظمها على ماهي فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وجدته كبيت المبنى المعد فيه جميع عداته السماء مرفوعة كالسقف والأرض الممدودة كالبساط والنجوم منورة كالمصابيح والجواهر مخزونه في معادنها كذخائر وكل شئ لشأنه وما يراد منه الإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه، وضروب النبات مهيئة لمآربه وصنوف الحيوانات مصرفة في مصالحه.

ففى هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام وأن الخالق واحد هو الذى ألفه ونظمه بعضه إلى بعض.

خامساً: يقول أبو الحسن الأشعرى: الإنسان اذا فكر في خلقته من أى شئ ابتداء وكيف دار في أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة وعرف يقيناً انه بذاته لم يكن ليدير خلقته ، ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقيه من نقص إلى كمال وعرف بالضرورة أن له صانعاً قادراً ومريداً عالماً إذ لايتصور صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الأحكام والإتقان في الخلقة.

سادساً : يقول ابن رشد: ماهى الطريقة الشرعية التى نبه الكتاب العزيز عليها واعتمدها الصحابة رضوان الله عليهم .. قلنا : الطريق الذى نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها استقرئ الكتاب العزيز وجدت تنحصر في جنسين: دليل العناية ودليل الاختراع .

أما الطريقة الأولى فتبنى على أصلين:

١ – أن جميع الموجودات التى هاهنا موافقة لوجود الإنسان.

٢ – أن هذه الموافقة ضرورية من فعل فاعل قاصد لذلك المريد ، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة اتفاقاً.

فاما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر بوجود الإنسان. وكذلك موافقة الأزمنة الأربع له والمكان الذى هو فيه أيضاً وهو الأرض وكذلك أيضاً موافقة كثير من الحيوان له والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار وكذلك تظهر العناية أيضاً في جميع البدن وأعضاء الحيوان،وبالجملة فمعرفة ذلك كله داخل في هذا الجنس ، ووجب على من أراد معرفة الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات.

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ووجود النبات ووجود السماوات وهذه الطريقة تبنى على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس:

الأول : إن هذه الموجودات مخترعة وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات كما قال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ .

الثاني : فهو أن كل مخترع فله مخترع من هذين الأصلين. إن للموجودات فاعلاً مخترعاً له وفى هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات . ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الإختراع الحقيقى في جميع الموجودات ومن لم يعرف حقيقة الشئ لم يعرف حقيقة الاختراع والى هذا أشار قوله

تعالى ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾.

وكذلك أيضاً من تتبع معنى الحكمة في وجود موجود أى معرفة السبب الذى من أجله خلق. والغاية المقصودة منه كان وقوفه على دليل العناية أتم فهذان الدليلان هما دليلا الشرع[1].

المسألة عند الإمام أبي حامد الغزالى:

تناول الإمام الغزالى في كتابه (إحياء علوم الدين) مسألة الأسباب كطريق للمعرفة اليقينية مرتين . الأولى في كتاب التوحيد وحمل على الركون على الأسباب الظاهرة . وأكد وجوب الإيمان بحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية، وناقش المسألة مرة ثانية في باب التوكل على الله. وان الإيمان يقضى بالتسليم بأفاعيل الأسباب وألاّ فاعل إلا الله ولا رازق إلا هو وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له ومن لم يؤمن بغير ذلك فلا يكمل حال التوكل على الله عنده إذ بناء التوكل إنما يكون على قوة الإيمان بهذه الأمور وكذلك سائر مقامات الدين من الأقوال والأفعال تبنى على أصولها من الإيمان وانتهى إلى أن التوكل على الله مفهوم يستدعى قوة للقلب وقوة لليقين.

ثم تناول الإمام الغزالى الأسباب وقسمها إلى ظاهرة وخفية. وقال : يجب أن يحسن المسلم الظن بالله تعالى في تيسيرها وهو في سعيه إلى مقاصده باختياره وقسم أوجه السعى إلى أربعة:

---

(١) تفاصيل ذلك : محاضرات في التوحيد للدكتور محمد شمس الدين كلية الآداب جامعة القاهرة (٢) فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٦٥ ، ٦٦ (٣) الملل والنحل للشهر ستانى جـ ١ س ١٠٩ (٤) الدلائل والإعتبار للجاحظ (٥) المعرفة في ظل الإسلام – عبد الحليم المغربى العدد ١٤٦ دراسات إسلامية من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

حلب منفعة أو حفظ منفعة أو رفع ضرر أو قطع ضرر.

ثم شرح هذه الأربعة شرحاً مفصلاً وضرب الأمثلة التوضيحية على كل واحدة ثم ذكر أن السعي في طلب المنافع والأسباب التي تجلب بها هذه المنافع على ثلاث درجات:

منافع مقطوعات بها ومنافع مظنون بها ظناً يوثق له ومنافع موهومة.

وهى التي لاتثق النفس بشأنها ثقة تامة، ثم ناقش المنافع المقطوع بها . وذلك من الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً ولذلك فليس من التوكل عدم الأخذ بالأسباب وترك الأسباب بشأنها حنون محض . قال الغزالي: إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز فقد جهلت الله تعالى. وكذلك إذا لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله سبحانه وتعالى لك نباتاً من غير زرع فهذا حنون محض، إذ التوكل على الله حال وعلم،والعلم أن تعلم أن الله تعالى خلق لك الطعام واليد والاسنان وقوة الحركة، وانه يطعمك ويسقيك. أما الحال بأن يسكن قلبك إلى الله، وتعتمد على فعله لا على الأسباب. ثم ناقش الإمام الغزالي باقي الأوجه وانتهى إلى أن التباعد عن الأسباب كلمة بعيدة عن الحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنن الله مع الاتكال عليه عز وحل دون الأسباب هذا لا يناقض التوكل.

الأسباب عند الصوفية:

الأسباب والمسببات عند الصوفية يمكن إجمالها في عبارة واحدة قالها السيد سلامة حسن الراضى في كتابه " الإنسانية " يقول : الأسباب أبواب لله يقف الإنسان عليها. وقضية الأسباب والمسببات عند الصوفية مرتبطة بالغاية من خلق الإنسان نفسه الذى حدد الحق حل شأنه مهمته في الكون بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ من هذه النقطة كانت نظرة الصوفية إلى قضية الأسباب من منطلق أن الله تعالى خلق الإنسان وأمره

بعبادته ، والإقبال عليه ليفوز بالسعادتين في الدنيا وفى الآخرة ، ونهاه عن طاعة النفس والشيطان. فإذا فعل العبد ما أمره ربه واجتنب مانهاه عنه كان عبداً حقاً تحرر من رق الأغيار ولم يكن للنفس ولا للشيطان عليه سبيل ولايكون همه إلا رضا ربه ويكون إنساناً كاملاً حقاً . ولو جاءته الدنيا من غير طلب لهرب منها وعلم أنها فتنة ثم يقول ويناقش مسألة من منطلق صوفى وإياك أن تظن أنى أقصد بترك الدنيا أن أهلها ينقطعون عن أعمالهم ويتركون أسبابهم . ولكنى أقصد أن الإنسان يعرف ربه ويوجه قلبه إليه ، ويشهد الفعل منه جل شأنه خلقاً وإيجاداً ثم يسعى في حوائجه ، ولايقصر فيها فتكون الأسباب عنده أبواب لله يقف عليها يلتمس من ربه العطاء. فإذا قصد إلى حاجة فإنه يقصد عند وقوفه بين يدى ذلك الشخص الذى لديه الحاجة انه على باب من أبواب ربه، ويعلق قلبه بالله تعالى ، ويعلم أن قلوب العباد بين يدى الله يقلبها كيف يشاء ، فلا يصدر عنه فعل إلا والحق تعالى خالق لذلك الفعل . فإن خرج مخرج الرضى كان لله شاكراً وإن خرج له مخرج السخط كان على قضاء الله صابراً . فإن أعطى شهد الله معطياً وإن منع شهد الله مانعاً بيده مقاليد الأمور جل شأنه وتقدست أسماؤه. وهذه حالة شريفة لايذوقها إلا من قام بالعبودية لله وبين يدى مولاه ولا يحصل ذلك إلا بدوام الالتجاء إلى الله والوقوف ببابه واستحضار أن الله هو الفعال ، وأنه المتفرد بالتدبير والإيجاد ولايقف مع ظواهر الأمور وإلا يحجب عن مولاه ، فالله هو الخالق المدبر.

النورسي ونظرية الأسباب والمسببات كطريق للمعرفة اليقينية :

لاشك أن الإمام النورسى قد أكد في مواضع كثيرة من رسائل النور وشرح وفصل وابان عن منهجه في نظرية الأسباب والمسببات ومن قبيل الإجمال قبل التفصيل يمكن القول بأن الإمام النورسى قد لخص فكرته فى عبارة واحدة. فقال:

"الأسباب هى حجب وستائر أمام القدرة الإلهية ليس إلا" (١)

(١) الكلمات ص ١٩٩

ثم راح يقيم الدليل ويشرح ويفصل القول الموجز فقال وهو يفسر قول الله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ فقلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ .

يقول النورسى : هذه الآية تبين معجزة سيدنا ابراهيم عليه السلام وفيها ثلاث إشارات :

الأولى: النار كسائر الأسباب ليس أمرها بيدها فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة . بل تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها فلم تحرق سيدنا ابراهيم لأنها أمرت بعدم الحرق.

الثانية : النار تحرق ببرودتها كالاحتراق . قال تعالى ﴿ كوني برداً وسلاماً ﴾ أمر الله تعالى بعدم الإحراق بالبرودة فهي نار وبرد كذلك.

الثالثة : كما أن الإيمان يمنع من دخول جهنم وكما أن الإسلام درع واقية وحصن حصين من النار فإن هناك إجراءات في هذه الدنيا تحت ستار الأسباب وذلك بمقتضى اسمه تعالى الحكيم. لذلك لم تحرق النار إبراهيم عليه السلام مثلما لم تحرق ملابسه أيضاً [1] .

ليس للأسباب تأثير حقيقي على الإيجاد والخلق:

الفكرة عند النورسى تقوم على ارتباط المسببات بالأسباب بمقتضى مشيئة الله وحكمته ويدافع الإمام النورسى دفاعاً قوياً عن ذلك في أكثر من موضع رسائل النور ، فيقول:

إنه أمام الحجج الدامغة يبقى داعية أهل الضلال مبهوتاً لا يتمكن من النطق بشئ إلا أنه يقول : أن ماقى الكائنات من ترتيب الأشياء ، أمارة على الشرك ، اذ كل شئ مربوط بسبب، بمعنى أن للأسباب تأثير، فيمكن أن تكون شركاء!.

---

(١) انظر الكلمات ٢٨٨ - ٢٨٩

الجواب: إن المسببات قد ربطت بالأسباب بمقتضى المشيئة الإلهية وحكمتها، ولاستلزام ظهور كثير من الأسماء الحسنى، يربط كل شئ بسبب. ولقد أثبتنا في كثير من المواضع، وفى كلمات متعددة إثباتا قاطعاً أنه ليس للأسباب تأثير حقيقى في الإيجاد والخلق، ونقول هنا:

إن الإنسان بالبداهة هو أشرف الأسباب وأوسعها اختياراً وأشملها تصرفاً فى الأمور، وهو في أظهر أفعاله الاختيارية ، كالأكل والكلام والفكر – التى كل منها عبارة عن سلسلة عجيبة وفى غاية الانتظام والحكمة – ليس له نصيب منها إلا واحداً من مائة جزء من السلسلة.

فمثلاً : سلسلة الأفعال التى تبدأ من الأكل وتغذية الحجيرات حتى تبلغ تشكل الثمرات، ليس للإنسان – ضمن هذه السلسلة الطويلة – إلا مضغه للطعام . ومن سلسلة التكلم ليس له إلا ادخال الهواء إلى قوالب مخارج الحروف واخراجه منها . علما أن كلمة واحدة في فمه مع كونها كالبذرة ، إلا انها في حكم شجرة حيث إنها تثمر ملايين الكلمات نفسها في الهواء وتدخل إلى اسماع ملايين المستمعين بينما لاتصل إلى هذه الشجرة المثالية والسنبل المثالى الا يد خيال الإنسان.. فأنّى لليد القصيرة للاختيار أن تصل اليه.

فإن كان الإنسان هو أشرف الموجودات وأكثرها اختياراً ، مغلولة اليد عن الإيجاد الحقيقى، فكيف بالجمادات والبهائم والعناصر والطبيعة، كيف تكون متصرفة تصرفاً حقيقياً ؟!.

فتلك الأسباب ماهى إلا أغلفة المصنوعات الربانية، وظروف الهدايا الرحمانية، وخدمة لتقديمها فلاشك أن الصحون التى تقدم فيها هدايا السلطان أو القماش المغلف للهدية أو الجندى الذى سلمت بيده هدية السلطان لن يكون شريكاً للسلطان قطعاً . فمن توهم ذلك فقد تفوه بهذيان مابعدها هذيان.

وهكذا ليس للأسباب الظاهرية والوسائط الصورية حصة في الربوبية الإلهية قطعاً ، وليس لها إلا القيام بخدمات العبودية[1].

وعلى ذلك يقودم الإمام النورسي فكره على أنه ليس للأسباب تأثير حقيقي في آثار القدرة الإلهية بمعنى أنها لاتدخل في الإيجاد وأنها ليست ذات قدرة وليست فاعلاً مقتدراً فالفاعل الحقيقي هو الله صاحب القدرة الصمدانية، والتوحيد يقضى الاستقلال ، ثم يقول النورسي:

تقتضى عزة الألوهية وعظمتها أن تكون الأسباب الطبيعية استاراً بين يدى قدرته تعالى أمام نظر العقل. ويقتضي التوحيد أن تسحب الأسباب الطبيعية يدها عن التأثير الحقيقي في آثار القدرة الإلهية أى لاتتدخل في الإيجاد والتأثير قطعاً [2]

ثم يقول : شاهد الإعجاز في تأليف الكون فلو أصبح كل سبب من الأسباب الطبيعية فاعلاً مختاراً مقتدراً بفرض محال لسجدت تلك الأسباب عاجزة ذليلة أمام ذلك الإعجاز قائلة: سبحانك لاقدرة فينا ربنا أنت القدير الأزلى ذو الجلال[3]. ويتابع النورسي شرح الفكرة فيقول:

اعلم أن الأسباب ليست الا ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقضيان الحجاب، أما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا، وتقضيان الاستقلال.

واعلم أن مأمورى السلطان الأزلى وموظفيه ليسوا هم المنفذين الحقيقيين لأمور سلطنة الربوبية ، بل هم دالون على تلك العظمة والسلطان، والداعون اليها ومشاهدوها المعجبون، فما وجدوا إلا لإظهار عزة القدرة

---

(١) الكلمات ص ٧٢٦ – ٧٢٧ .

(٢) الكلمات ص ٨٤٠

(٣) نفسه ٨٤٢

الربانية وهيبتها وعظمتها، وذلك لئلا تظهر مباشرة يد القدرة في أمور جزئية خسيسة لا يدرك نظر أكثر الغافلين حسنها ولايعرف حكمتها بغير حق ويعترض بغير علم . وهم ليسوا كموظفى السلطان البشرى الذى لم يعينهم ولم يشركهم في سلطنتهم الا نتيجة عجزه وحاجته.

فالأسباب اذن انما وضعت لتبقى عزة القدرة مصونة من جهة نظر العقل الظاهرى؛ إذ ان لكل شئ جهتين- كوجهى المرآة- احداهما جهة "الملك" الشبيهة بالوجه الملون للمرآة الذى يكون موضع الألوان والحالات المختلفة، والأخرى جهة "الملكوت" الشبيهة بالوجه الصقيل للمرآة . ففى الوجه الظاهر - أى جهة الملك - هناك حالات منافية ظاهراً لعزة القدرة والصمدانية وكمالها، فوضعت الأسباب كى تكون مرجعاً لتلك الحالات ووسائل لها. أما جهة الملكوت والحقيقة فكل شئ فيها شفاف وجميل وملائم لمباشرة يد القدرة لها بذاتها، وليس منافياً لعزتها، لذا فالأسباب ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقى في الملكوتية أو في حقيقة الأمر.

وهناك حكمة أخرى للأسباب الظاهرية وهي:

عدم توجيه الشكاوى الجائرة والاعتراضات الباطلة إلى العادل المطلق جل وعلا. أى وضعت الأسباب لتكون هدفاً لتلك الاعتراضات وتلك الشكاوى، لأن التقصير صادر منها ناشئ من افتقار قابليتها.

ولقد روى لبيان هذا السر مثال لطيف ومحاورة معنوية:

ان عزرائيل عليه السلام قال لرب العزة:

" ان عبادك سوف يشتكون منى ويسخطون علىّ عند أدائى لوظيفة قبض الأرواح".

فقال سبحانه وتعالى له بلسان الحكمة:

" سأضع بينك وبين عبادى ستائر المصائب والأمراض لتتوجه شكاواهم إلى تلك الأسباب".

وهكذا ، تأمل كما أن الأمراض ستائر يرجع اليها مايتوهم من مساوئ في الأجل ، وكما أن الجمال الموجود في قبض الأرواح – وهو الحقيقة – يعود إلى وظيفة عزرائيل عليه السلام ، فإن عزرائيل عليه السلام هو الآخر ستار، فهو ستار لأداء تلك الوظيفة وحجاب للقدرة الإلهية إذ أصبح مرجعاً لحالات تبدو ظاهراً الها غير ذات رحمة ولا تليق بكمال القدرة الربانية[1].

ومن ذلك يرد النورسى الإخفاق في إحداث النتيجة عن الأسباب إلى الأسباب ذاتها فالتقصير صادر عن الأسباب بسبب افتقار قابليتها إلى تحقيق المقصود أى أن العيب في الأسباب فلا تصح الشكوى من العادل المطلق ..

ويزيد النورسى الأمر توضيحاً فيقول في النافذة السابعة والعشرين" في شرح قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل﴾ [الزمر – ٦٢].سنظل من هذه النافذة على مافى موجودات الكون من " أسباب ومسببات" فنرى أن أسمى الأسباب وأشرفها قاصرة يدها على بلوغ أدنى المسببات وعاجزة عن إدراك ما ينجم عنها. فالأسباب إذن ليست الا ستائر وحجباً ، فالذى يوجد " المسببات" هو غير الأسباب. ولنوضح الكلام بمثال:

القوة الحافظة في ذهن الإنسان ، وهى بحجم حبة من خردل موضوعة في زاوية من زوايا دماغه، نراها وكأنها كتاب جامع شامل، بل مكتبة وثائقية لحياة الإنسان، حيث تضم مستندات جميع أحداث حياته من دون اختلاط ولاسهو. تُرى أى سبب من الأسباب يمكن أن يبرز لتوضيح وتفسير هذه

---

(١) الكلمات ٣٢٦ – ٣٢٧

المعجزة الظاهرة للقدرة الإلهية؟ أهو تلافيف الدماغ؟ أم أن ذرات حجيرات الدماغ بلا شعور تستطيع الحفظ والتسجيل؟ أم رياح المصادفات العشوائية ؟

فلا يمكن أن تكون هذه المعجزة الباهرة الا من ابداع " صانع حكيم" جعل تلك " القوة الحافظة " مكتبة أو سجلاً يضم صحائف أعمال الإنسان ، ليذكره بأن ربه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليعرضه أمام المشهد الأعظم يوم الحساب.. خذ " القوة الحافظة" في ذهن الإنسان ، وقس عليها سائر المسببات من بيوض ونوى وبذور وأمثالها من المعجزات البديعة المصغرة، تر أينما وليت نظرك وفى أى مصنوع كان، فإنك أمام خوارق إبداع لا يقوى عليها سبب من الأسباب، بل حتى لو اجتمعت الأسباب جميعها لإيجاد تلك الصنعة الخارقة لأظهرت عجزها عجزاً تاماً ولو كان بعضها لبعض ظهيراً .

ولنأخذ الشمس مثلاً — التي يظن أنها سبب عظيم — فلو قيل لها مفترضين فيها الشعور والإختيار: ايتها الشمس العظيمة! هل تستطيعين ايجاد حسم ذبابة واحدة؟ فلاشك أنها سترد قائلة:

إن ما وهبني ربي من ضياء، وأغدق عليّ من حرارة وألوان لاتؤهلني للخلق ولا يمنحني ما يتطلبه ايجاد ذبابة من عيون وسمع وحياة . لست مالكة لشيء منها قط، فهذا الأمر فوق طاقتي كلياً .

نعم ، كما أن الابداع الظاهر على " المسببات" وروعة جمالها قد عزلت الأسباب وسلبتها قدرة الخلق، ودلتنا بلسان حالها على مسبب الأسباب، وسلمت الأمور كلها بيد الله كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله**﴾ [هود – ١٢٣] كذلك النتائج التي نيطت بالمسببات ، والغايات الناشئة والفوائد الحاصلة منها، تظهر جميعاً بداهة أن وراء حجاب الأسباب رباً كريماً ، حكيماً ، رحيماً ، وأن مانراه من أشياء ليست إلا من صنعه وإبداعه سبحانه[1]

---

(١) الكلمات ص ٥٨٢-٥٨٣

المقارنات

ومن العرض السابق وبمقارنة الأدلة والبراهين النورسية على إثبات أصول العقائد بنظرية السبب والمسبب . يتبين الآتي :

أولاً : النورسي ملتزم أصول النظر العلمي لدى العلماء السابقين وما هو إلا امتداد لهم فقد التزم في براهينه أصول العقائد الإسلامية أدلة القرآن ومخاطباته من قياس وسبر وتقسيم وقول بالموجب والتسليم وإرخاء العنان للخصم أخذاً بأن المذكور يمتنع وقوعه لامتناع وقوع شرطه ومنها الإسجال بمعناه عند الغزالي والانتقال من استدلال إلى استدلال ، والمناقضة بتعليق أمر على مستحيل لاستحالة وقوعه ومجاراة الخصم ليعثر . وهكذا ...

والنورسي كان على منهج الأقدمين في الفهم وعلى وفق أطر مخاطبات القرآن الكريم للعقل الإنساني بدرجاته المختلفة من عقل وازع إلى عقل مدرك إلى عقل حكيم إلى عقل رشيد ، ويعتمد في البرهنة المنطقية إثباتاً لأصول العقائد وتثبيتاً لها على المناقشة الهادئة المتسلسلة مع الاستدلال الحاسم .

ثانياً : لم يلتزم في برهنته على أصول العقائد بصيغ وقوالب ومصطلحات السابقين بل لجأ إلى التمثيل وعرض المشاهد على القارئ والتغلغل في الأنفس والآفاق . وقام بتوظيف نتائج العلوم الحديثة من كيمياء وجيولوجيا وهندسة وطب وفلك وزراعة وصناعة ، وجعل نتائجها مقدمات لإثبات قضاياه الإيمانية . ثم قام بعملية استقراء ما في الكون على ضوء هذه النتائج ليصل بقارئه إلى اليقين الجازم .

ثالثاً : لجأ النورسي في البرهنة على أصول العقائد الأربعة إلى حشد الأدلة والبراهين وجعلها في حالة تساند وتعاضد في المسألة الواحدة ليضع قارئه في شبكة من الأدلة والأمثلة والبراهين المنطقية والاستدلالات العلمية والعقلية ليسكب في قلب القارئ برد اليقين وحقيقة الإيمان .

رابعاً : في قضية الأسباب والمسببات لم يخرج عن منـــهج الســـابقين مطلقاً فقد التزم منهج الغزالى في تقسيم الأسباب إلى ظاهرة وخفية . وأنــــه يجب الأخذ بالأسباب الظاهرة لأنها سنن كونية واجبـــة الاحـــترام وهنـــاك الأسباب الخفية وهى بيد الله سبحانه وتعالى وإليها يرجع الأمر في تحقيـــق النتائج فإن تحققت النتائج على الأسباب فالشكر لله والنتائج من الله لا مـــن الأسباب ، وإن لم تتحقق فالعيب في الأسباب . وما أضافه النورســـى هـــو قولـــه: أن الأسباب ستار للقدرة الألهية وحاول التعليل فقال بحكمة الأسباب الظاهرة وهى عدم توجيه الشكاوى الجائرة والاعتراضات على العادل المطلـق لذلك وضعت الأسباب لتكون هدفاً لتلك الاعتراضات وهو تعليل لا يرقـى إلى ما قال به الغزالى ولا إلى ما قال به الصوفيه ، فالغزالى يقول إن تحققـــت النتائج فوجب الشكر وإن لم تحقق فوجب الصبر . والصوفية قالوا كن مع الله دائماً عند تحقق النتائج أو عند عدم تحققها فجميع أحوالك أن تكون مـع الله والأسباب أبواب لله تقف عليها ، وهو معنى راق يبلغه الصوفية بمجاهدتهم .
أما النورسى فإنه يتجه من خلال نظرية الأسباب والمسببات إلى أن يجعل منها برهاناً على واجب الوجود وهو الله جل شأنه وعلى قدرته وعلمه وإحاطتـــه وحكمته وتدبيره ، ليصل إلى أسرار الكون ومعرفة خفاياه وإظهار عظمـــة خالقه وقدرته . ويتناول النظرية من جانب محاولة إبعاد المسلم عن مواطـــن الزلل والخطأ إذا لم تتحقق النتائج على الأسباب فإن تحققت النتـــائج علـــى الأسباب فوجب الشكر لله مسبب الأسباب وإن لم تتحقق يقول النورســى : هنا وضعت الأسباب لتكون محط سخط وغضب الإنسان عليها وجعلـــها حجباً وستائر أمام القدرة الإلهية لأن النورسى يتناول المسألة من باب القضايا الإيمانية ويحاول البرهنة عليها عقلاً لإثبات القدرة المطلقة خلـــف الأســـباب الظاهرة ، لذلك ضرب مثلاً بالنار والسكين مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وحسب قانون السببية بأن إطلاق النار تحرق والسكين تقطع ولكنها أمـــرت بعدم القطع فلم تقطع وأمرت النار بعدم الإحراق فلم تحرق .

وتوصل إلى نتيجة مؤداها أن الأمر إذاً فوق الأسباب والمسببات وهنا التقى النورسى بالغزالى في الأسباب الخفية . والتقى بالصوفية في أن مرد الأمور إلى الله مع وجوب التسليم له ، وليس بالوقوف عند الأسباب .

خامساً : إلتزم النورسى منهج الأصوليين ومنهج المتكلمين فقال بدليل الإمكان ودليل الاختراع ودليل العناية ودليل التوحيد ، غير أنه هاجم الأقدمين في إضاعة الجهد في الكلام عن الدور والتسلسل ومع ذلك نزل إلى الساحة مع خصومه بسلاح الأقدمين فلجأ إلى القول بدليل الحكماء والمتكلمين الذى يقوم على امتناع وجود الممكن أو الحادث بلا موجد وعلى استحالة الدور والتسلسل .

وننتقل بعد ذلك إلى عرض الأدلة في الكائنات والإنسان :

الدلالات

١- دليل التوحيد :

يقول النورسى في واجب الوجود الذى ليس كمثله شئ جل شأنه المتصف بجميع الأوصاف الكمالية :

أما دليل التوحيد الذى أشار إليه (اعبدوا) على تفسير ابن عباس أى وحدوا ، فاعلم أن القرآن المعجز البيان ما ترك من دلائل التوحيد شيئاً . وما تضمنته آية (**ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**) [1] من برهان التمانع دليل كاف ومنار نير على أن الاستقلال خاصة ذاتية ولازم ضرورى للألوهية ثم إن فى هذه الآية رمزاً إلى دليل لطيف على التوحيد وهو : أن تعاون الأرض والسماء ومناسبتهما في توليد الثمرات — لتعيش نوع البشر وجنس الحيوان — ومشابهة آثار العالم وتعانق أطرافه وأخذ بعض يد بعض بتكميل

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٢ .

بعض انتظام بعض ، وتجاوب الجوانب وتلبية بعض لسؤال حاجة بعض ، ونظر الكل إلى نقطة واحدة ، وحركة الكل بالانتظام على محور نظام واحد ؛ تلوح بل تصرح بأن صانع هذه الماكينة الواحدة واحد وتتلو على كلٍ :

وفى كل شئ له آية تدل على أنه واحد [1]

ثم يقول النورسى :

ثم اعلم ! أن الصانع كما أنه واجب الوجود وواحد ، كذلك إنه متصف بجميع الأوصاف الكمالية ؛ لأن ما في المصنوع من فيض الكمال إنما هو مقتبس من ظل تجلى كمال صانعه . فبالضرورة يوجد في الصانع جل جلاله من الجمال والكمال والحسن ما هو أعلى بدرجات غير متناهية من عموم ما في عموم الكائنات من الحسن والكمال والجمال ؛ إذ الإحسان فرع لثروة المحسن ودليل عليها ، والإيجاد لوجود الموجد ، والإيجاب لوجوب الموجب ، والتحسين لحسن المحسن المناسب له . . .

وكذلك أن الصانع مرة عن جميع النقائص ، لأن النواقص إنما تنشأ عن عدم استعداد ماهيات الماديات وهو تعالى مجرد من الماديات .

وكذلك أنه تعالى مقدس عن لوازم وأوصاف نشأت من إمكان ماهيات الكائنات وهو سبحانه واجب الوجود ليس كمثله شئ جل جلاله .
ولقد أشار إلى هاتين الحقيقتين بقوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً) [2].

٢- دليل العناية :

يقول النورسى فى عرض منهجه فى البرهنة على اليقين بدليل العناية :

(١) لأبي العتاهية في ديوانه وينسب إلى الإمام على كرم الله وجهه ، ونسبه ابن كثير في مقدمة تفسيره إلى ابن المعتز

(٢) إشارات الإعجاز ١٥٤ - ١٥٥ .

اعلم ! أن البرهان إما " لمىّ " وهو الاستدلال بالمؤثر على الأثر . وإما " إنّى " وهو الاستدلال بالأثر على المؤثر ، وهذا أسلم [1] وهو إما " إمكانى بالاستدلال " بتساوى الطرفين على المرجح ، وإما " حدوثى بالاستدلال " بالتحول والتبدل على الموجد . . . وكل منها إما باعتبار ذوات الأشياء أو باعتبار صفاتها . . وكل منها إما بإعطاء الوجود أو بإدامة البقاء . . وكل منها إما " دليل اختراعى " أو " دليل عنايتى " وهذه الآية إشارة إلى هذه الأنواع ، فالملخص منها هنا .

أما دليل العناية على إثبات الصانع الذى يلوح به هذه الآية الكريمة ، هو " النظام المندمج فى الكائنات " ؛ إذ النظام خيط نيط به المصالح والحكم . فجميع هذه الآيات القرآنية التى تعد منافع الأشياء وتذكر حكمها إنما هى نساجة لهذا الدليل ، ومظاهر لتجلى هذا البرهان ؛ إذ أن النظام المرعى به المصالح والحكم كما يثبت وجود نظام كذلك يدل على قصد الصانع وحكمته وينفى من البين وهم التصادف الأعمى والاتفاقية العمياء [2].

ثم يقول النورسى :

يا هذا ! إن لم يحط نظرك بهذا النظام العالى المزين بفصوص الحكم ، ولا تقتدر على الاستقراء التام ؛ فانظر بجواسيس الفنون — التى هى الحواس لنوعك — الحاصلة من تلاحق الأفكار — الذى هو فى حكم فكر النوع — لترى نظاماً يبهر العقول ، وتعلم أن كل فن من فنون الكائنات كشاف بكلية قواعده عن اتساق وانتظام لا يعقل أكمل منهما ؛ إذ كل نوع من الكائنات إما تشكل فيه فن أو يقبل أن يتشكل . والفن عبارة عن قواعد كلية . وكلية القاعدة تدل على حسن النظام ؛ إذ ما لا نظام له لا تجرى فيه الكلية . ألا

---

(١) كدلالة النار على الدخان ودلالة الدخان على النار ، وهذا أسلم من الشبهات (ت:٩٦) .

(٢) إشارات الإعجاز / ١٥٠ .

ترى أن قولنا " كل عالم فهو ذو عمامة بيضاء " إنما يصدق كلية ، إذا كان في ذلك النوع انتظام . فانتج أن كل فن من الفنون الكونية بسبب كلية قواعده ينتج بالاستقراء التام نظاماً شاملاً ، وإن كل فن برهان نير يشير إلى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في حلقات سلاسل الموجودات ، ويلوح إلى الحكم والفوائد المستترة في معاطف انقلابات الأحوال . فترفع الفنون أعلام الشهادة على قصد الصانع وحكمته ، كأن كل فن نجم ثاقب في طرد شياطين الأوهام .

ثم بعد هذا التعميم في القواعد يوضح بمثال من ثمرات العلم الحديث فيقول :

إن الحيوان الميكروسكوبي الذي لا يرى بالعين بلا واسطة ، اشتملت صورته الصغيرة على ماكينة دقيقة بديعة إلهية . فبالضرورة والبداهة إن تلك الماكينة الممكنة في ذاتها وصفاتها ما وجدت بنفسها بلا علة لإمكان ذاتها وصفاتها وأحوالها . والممكن متساوي الطرفين ككفتي الميزان ، ولو وجد الترجح لكان في العدم . فباتفاق العقلاء لابد من علة مرجحة . . ومن المحال أن تكون العلة أسباباً طبيعية ؛ إذ ما فيها من النظام الدقيق يقتضي نهاية علم وكمال شعور لا يمكن تصورهما في تلك الأسباب التي يخادعون أنفسهم بها . مع أنها أسباب بسيطة قليلة جامدة لم يتعين مجاريها ، ولم يتحدد محاركها مع ترددها بين ألوف من الإمكانات التي لا أولوية لبعضها . فكيف تجري مجرى معين ، وتتحرك على محرك محدود ، وكيف يترجح بعض وجوه الإمكانات حتى يتولد هذه الماكينة العجيبة المنتظمة التي حيرت العقول في دقائق حكمها بل إنما تقنع نفسك وتطمئن بتولدها منها أن أعطيت لكل ذرة شعور " أفلاطون " وحكمة " جالينوس " واعتقدت بين تلك الذرات مخابرة عمومية. وما هذه إلا سفسطة يخجل منها السوفسطائيون . مع أن أس الأسباب المادية وجود القوة الجاذبة والقوة الدافعة معاً في جزء لا يتجزأ والجوهر الفرد ، وأن هذا كاجتماع الضدين .

نعم ، قانون الجاذبة والدافعة وأمثالهما أسماء لقوانين عادات الله تعالى وشريعته الفطرية المسماة بالطبيعة . فهذه القوانين مقبولة بشرط أن لا تنتقل من القاعدية إلى الطبيعية ، وأن لا تخرج من الذهنية إلى الخارجية ، وأن لا تتحول من الاعتبارية إلى الحقيقية ، وإن لا تترقى من الآلتية إلى المؤثرية .

فإذا تفهمت ما فى هذا المثال ورأيت عظمته مع صغره ووسعته مع ضيقه ؛ فارفع رأسك وانظر في الكائنات تر وضوح دليل العناية وظهوره بمقدار درجة وسعة الكائنات . فكل الآيات القرآنية لنعم الأشياء والمذكرة لفوائدها مظاهر لهذا الدليل . فكلما أمر القرآن الكريم بالتفكر فإنما أشار مخاطباً للعموم إلى طريق هذا الاستدلال (**فارجع البصر هل ترى من فطور**) ثم أن الذى يومئ إلى هذا الدليل من هذه الآية قوله تعالى ﴿ **الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ [1] .

والخلاصة الذى نخرج منها في هذا الاستدلال على أن الله تعالى كما تفضل على الخلق بنعمة الإيجاد تفضل عليهم بنعمة الإمداد نعمة العناية الألهية بخلقه (أليس الله بكاف عبده) ولو نظرنا في الكون نظرة دقيقة عميقة وجدنا عناية فائقة من الخالق على مخلوقاته وشفقة لا حدود لها كما أخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم وتظهر في ذرة من ذرات الكون وكل حركة من حركاته . وبجانب ذلك فإن كل شئ ينتهى إلى غاية واضحة وجد لها وهى ملاحظة مستقرأة في مجالات الوجود كله . ويوجز النورسى ذلك فيقول :

" إن جميع الآيات الكريمة التى تعد منافع الأشياء ، وتذكر حكمها ، هى نساجة لهذا الدليل ، ومظاهر لتجلى هذا البرهان .

---

(١) إشارات الإعجاز ص ١٥٠-١٥٢ .

وزبدة هذا الدليل هى : إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات ، وما فيها من رعاية المصالح والحكم ، إذ النظام المندمج في الكائنات ، وما فيها من رعاية المصالح والحكم ، ويدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة ، وينفى نفياً قاطعاً وهم المصادفة والاتفاق الأعمى . لأن الإتقان لا يكون دون اختيار . فكل علم من العلوم الكونية شاهد صدق على النظام ، ويشير إلى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في أغصان الموجودات ، ويلوح فى الوقت نفسه إلى الحكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الأحوال وتغير الأطوار " (1)

٣- دليل الاختراع :

إن الله تعالى أعطى لكل فرد ، ولكل نوع ، وجوداً خاصاً ، وهو منشأ آثاره المخصوصة ، ومنبع كمالاته اللائقة ، إذ لا نوع يتسلسل من الأزل ، لأنه من الممكنات ولبطلان التسلسل . وإن الحقائق لا تنقلب بل ثابته والأنواع المتوسطة لا تدوم سلاسلها ، أما تحول الأصناف فهو غير انقلاب الحقائق ، إذ ما يسمونه من تغير صور المادة ما هو إلا حادث ، لأن حدوث بعضها مشهود ، وبعضها الآخر يثبت بالضرورة العقلية . فالقوى والصور من حيث أنها عرضية لا تشكل التباين الجوهرى الموجود في الأنواع . فلا يكون العرض جوهراً فالفصائل أنواع إذاً وميزات عموم الأعراض وخواصها قد أبدع واخترع من العدم البحت أما التناسل في السلسلة فهو من الشرائط الاعتبارية الاعتيادية . فيا عجباً كيف تستوعب أذهان الضلالة أزلية المادة – فهى تنافى الأزلية قطعاً – بينما تعجز تلك الأذهان عن إدراك الأزلية الخالق الجليل التى هى من ألزم صفاته الضرورية ؟

ثم كيف وجدت الذرات المتناهية في الصغر قوة وثباتاً بحيث تقاوم أوامر القدرة الإلهية وتبقى أزلية ، بينما الكون بعظمته منقاد إلى تلك الأوامر

---

(1) المثنوى العربى النورى ص ٤٢٨

انقياد طاعة وخضوع ؟ وكيف يسند الإبداع والإيجاد – وهما من خواص القدرة الإلهية – إلى أعجز شئ وأهونه وهو الأسباب ؟

فالقرآن الكريم يرسخ هذا الدليل في آياته التي تبحث عن الخلق والإيجاد . ويقرر ألا مؤثر إلا الله وحده فالأسباب لا تأثير لها حقيقياً وإنما هي ستائر أمام عزة القدرة وعظمتها .[1]

إن الله تعالى أعطى لكل فرد ولكل نوع وجوداً خاصاً هو منشأ آثاره المخصوصة ، ومنبع كمالاته اللائقة ؛ إذ لا نوع يتسلسل إلى الأزل لإمكانه ، ولبطلان التسلسل ، ولأن هذا التغير في العالم يثبت حدوث بعض بالمشاهدة ، وبعض آخر بالضرورة العقلية . ثم إنه قد ثبت بعلم الحيوانات والنباتات تكاثر الأنواع إلى أزيد من مائتي ألف نوع ولكل نوع آدم وأب عال . فبسر الحدوث والإمكان يثبت بالضرورة صدور تلك الأوادم والأباء للأنواع عن يد القدرة الإلهية بلا واسطة . ولا يتوهم فيها ما يتوهم في السلسلة وتوهم انشقاق الأنواع بعضها عن بعض باطل ، لأن النوع المتوسط لا يتسلسل بالتناسل في الأكثر فلا يكون رأس سلسلة فإذا كان المبدأ والأصل هكذا ، فأجزاء السلسلة كذلك بالطريق الأولى .

نعم كيف يتصور أن تكون الأسباب الطبيعية البسيطة الجامدة التي لا شعور لها ولا اختيار قابلة لإيجاد تلك السلاسل التي تحيرت الأفهام فيها ، ولاختراع أفرادها التي كل منها صنعة عجيبة من معجزات القدرة . فكل الأفراد مع سلاسلها تشهد بلسان حدوثها وإمكانها شهادة قاطعة على وجوب وجود خالقها جل جلاله . فإن قلت مع هذه الشهادة القاطعة كيف يعتقد الإنسان بأفعال ضلالات أزلية المادة وحركتها [2] .

---

(١) المثنوى العربى النورى ص ٤٢٩ .

(٢) إشارات الإعجاز ص ١٥٢-١٥٣ .

ولقد ناقش النورسى هذا التساؤل وانتهى فيه إلى القول : " الحاصل: أن الإنسان إذا نظر نظراً سطحياً تبعياً إلى الأمر الباطل المحال و لم يرى العلة الحقيقية احتمل صحته عنده إلا أنه إذا نظر إليه قصداً وبالذات وتحراه لا يمكن أن يقبل شئ من تلك المسائل التي يطنطنون بها في الحكميات . ويتساءل النورسى إن قلت فالطبيعة والنواميس والقوى التي يدورون ويسلّون أنفسهم بها أقول : الحاصل أن الطبيعة صنعة الله تعالى وشريعته الفطرية وأما نواميسها فمسائلها وأما قواها فأحكام تلك المسائل [1] .

٤- دليل الإمكان :

وتناول النورسى في مواضع كثيرة من رسائل النور في الشعاعات يقول إجمالاً :

أما جهة الإمكان فهو الآخر قد استولى على الكون وأحاط به إذ نشاهد أن كل شئ سواء كان كلياً أم جزئياً كبيراً أم صغيراً وكل موجود من العرش إلى الفرش ومن الذرات إلى السيارات إنما يرسل إلى الدنيا ، بذاتية خاصة ، وبصورة معينة ، وبشخصية متميزة وبصفات خاصة وبكيفيات حكيمة ، وبأجهزة ذات مصالح وفوائد . والحال أن إعطاء تلك الخصوصية ، لتلك الذات الخاصة ولتلك الماهية ، من بين إمكانات غير محدودة . . وكذا اكساء تلك الصورة المعينة ذات النقوش والعلامات الفارقة المتناسبة ، من بين إمكانات واحتمالات عديدة بعدد الصور . . وكذا تخصيص تلك الشخصية اللائقة بانتقاء متميز لذلك الموجود المضطرب بين إمكانات بقدر أشخاص بني جنسه . . وكذا تمكين صفات خاصة ملائمة ذات مصالح بذلك المصنوع الذى ليس له شكل والمتردد ضمن إمكانات واحتمالات بعدد أنواع الصفات ومراتبها . . وكذا تجهيز ذلك المخلوق لتلك الكيفيات ذات الحكمة ،

---

(١) أنظر إشارات الإعجاز ص ١٥٤

وتقليده بتلك الأجهزة ذات العناية التي من الممكن أن تكون في طرق شتى وطرز غير محدودة ، فهو المتحير السائب بلا هدف ضمن ما لا يحد من الإمكانات والاحتمالات . . إن جميع هذه الإشارات والدلالات والشهادات الصادرة من حقيقة " الإمكان " تشكل بلا شك أحد جناحي هذه الشهادة العظمى للكون لأنه بعدد جميع الممكنات الكلية والجزئية ، وبعدد إمكانات كل ممكن – مما ذكر – من ماهية وهوية ، وما له من هيئة وصورة ، وما يتميز به من صفة ووضعية ، هناك إشارات ودلالات وشهادات على وجود واجب الوجود سبحانه ، الذي يخصص ويرجح ويعين ويحدد ، ولا حد لقدرته ، ولا نهاية لحكمته ، ولا يخفى عليه شئ ولا شأن ، ولا يعجزه شئ ، ولا يعزب عنه شئ ، فأكبر شئ عنده يسير كأصغره . وهو القادر على إيجاد ربيع بيسر إيجاد شجرة ، وعلى إيجاد شجرة بسهولة إيجاد بذرة [١] .

فاعلم أن كل واحدة من الذرات والكائنات باعتبار ذاتها ، باعتبار فرد فرد من صفاتها ، باعتبار واحدٍ واحدٍ من أحوالها ، وباعتبار جهة جهة من وجوهها ؛ بينما تراها تتردد بين الإمكانات الغير متناهية في الذات والصفات والأحوال والوجود ، إذاً انتعشت وقامت وسلكت طريقاً معيناً منها ولبست صفة مخصوصة ، وتكيفت بحالة منتظمة ، وركبت على قانون مسدد ، وتوجهت إلى مقصد معين فأنتجت حكمة ومصلحة لا تحصلان إلا بذلك الطرز المعين . . أفلا تنادى بلسانها المخصوص وتصرح بقصد صانعها وحكمته ؟ فكما أن كل ذرةٍ بنفسها دليل على الانفراد ؛ كذلك تتزايد دلالاتها باعتبار كونها جزءً من مركبات متداخلة متصاعدة ؛ إذ لها في كل مركب مقام . . وفى كل مقام لها نسبة . . وفى كل نسبة لها وظيفة . . وفى كل وظيفة تثمر مصالح . . وفى كل مرتبه تتلو بلسانها دلائل وجوب وجود صانعها . . مثلها كمثل جندى في " طاقمه وطابوره وفرقته إلخ " [٢] .

---

(١) الشعاعات ص ١٨٣-١٨٤ .

(٢) إشارات الإعجاز ص١٥٥ .

خاتمة

لا شك أنه بعد هذه الرحلة الطويلة مع الإمام بديع الزمان النورسى لا يملك الإنسان إلا أن يقف مندهشا . . رافعا يديه بالتسليم ضعفاً أمام هذا العلم الربانى وعجزاً عن الإحاطة بهذه الموسوعية الفائقة . وأنّى لمثلى أن يدرك شيئاً من هذا الخضم العميق المترامى الأطراف . فحياة الرجل وعقيدته وفكره ودعوته وحركته تحتاج إلى جهود باحثين أكفاء . وأنّى لى مثل ذلك وحسبى حبى له وللعلماء والسير في ركابهم . ولا أملك إلا ن أسجل ما ارتسم على مرآة القلب من معايشة رسائل النور ، وفى هذه الشهور الطويلة في أن دعوة النورسى قوامها عقيدة صافيه أولها القرآن ووسطها القرآن وختامها القرآن وسنة المصطفى صلى ا الله عليه وسلم .

اللهم أرزقنا علمه وانفعنا به وأكتب لنا الخير معه واجزه عن أمته خير الجزاء .

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

فهرس

هذا الكتاب

إن كل ذرة من ذرات الكون تدل على الخالق الكريم بذاتها وبوجودها المنفرد ، وبصفاتها ، وخواصها ، فإنها تدل عليه دلالات أكثر : بمحافظتها على موازنة القوانين العامة الجارية فى الكون ، إذ تنتج فى كل نسبة مصالح متباينة ، وفى كل مقام منه فوائد جليلة ، لكونها جزءاً من مركبات متداخلة متصاعدة فى أجزاء الكون الواسع ؛ وذلك من حيث الإمكانات والاحتمالات التى تسلكها فى كل مرتبة ، حتى إنها تستقرئ دلائل الوجود فيها .. لذا غدت الدلائل على وجوده سبحانه أكثر بكثير من الذرات نفسها .

- فإذا قلت : لِمَ إذاً لا يراه كل فرد بعقله ؟

الجواب : لكمال ظهوره جلّ وعلا .

نعم ! ان هناك أجراماً مادية لا ترى من شدة ظهورها - كالشمس - فكيف بالصانع الجليل المنزّه عن المادة !

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الاعلى إليك رسائل

تأمل فى صحائف العالم بعين الحكمة ، فانظر كيف سطّر البارئ المصور فى تلك الأبعاد الشاسعة سلسلة الحوادث . وأنعم النظر الرسائل الآتية من الملأ الاعلى كى ترفعك إلى أعلى عليى اليقين

* من البحوث الفائزة فى المسابقة الثقافية الكبر فكر الامام بديع الزمان سعيد النورسى - القاهرة - ٩٧

الناشر